القسم الاول

في قارة اسيا وشعوبها ودولها ومالكها وما يتعلق بها

الفصل الاول

في مناخ اسيا وحواصلها وجبالها وحيواناتها

قد ذكرنا فيما سبق ان اسيا هي بلاد متسعة جدًّا تحتوي على مدن عديدة وشعوب كثيرة وبرارٍ واسعة ونتكلم عليها الآن باوضح بيان فنقول

ان هذه القارة واقعة في الجهة الشرقية من الكرة الشرقية والهواء في جنوبيها حار جدًّا واكثر اراضيها مخصبة ينمو فيها البن والفلفل والفستق واللوز والزيتون وقصب السكر والارز والموز والكافور والعود والند وغير ذلك من الاصناف كالرياحين والتوابل والافيون والصبر والازهار البهجة ذوات الروائح الذكية وفي جنوبي هذه القارة مملكة الصين والهند والعجم والاتراك والعرب

وفي اواسط اسيا جبالٌ شامخة رؤوسها مغمورة بالثلج الدائم وهي من اعلى جبال الدنيا يبلغ ارتفاع بعضها نحو ستة اميال تقريبًا . وفي شمال هذه الجبال اراضٍ باردة فيها سهول متسعة واهلها قبائل من التتر يتحولون من مكان الى مكان في طلب المرعى لجمالهم وخيولهم ومواشيهم . وليس في تلك السهول المقفرة سوى قليل من المدن والقرى واكثر اهلها يسكنون في الخيام ويقتاتون من لحوم مواشيهم والبانها ويقتنصون الابل وحمار الوحش وغير ذلك من الحيوانات البرية في تلك النواحي والاقاليم

وفي هذه القارة اجناس كثيرة من الحيوانات التي تستحق الاعتبار كالفيل في الغياض والكركدن على شطوط الانهر والاسد في البراري والسهول والنمر والفهد في الاجام . وفيها ايضًا اجناس هائلة يبلغ طولها ثلاثين قدمًا او نحو خمس عشرة ذراعًا وانواع كثيرة من السعادين والقرود في الاماكن الحارة وفيها ايضًا الخيول الحسان والجمال والهجن المستظرفة وغيرها من الحيوانات المختلفة لم نذكرها خوف الاطالة وفي الجهات الجنوبية من اسيا تحدث زوابع عظيمة جدًّا فتقصف الاشجار احيانًا . واحيانًا تجف الارض وتيبس من قلة المياه فيحدث من جرى ذلك جوعٌ شديد . واحيانًا تاتي مع الرياح ربوات عديدة من الجراد فتفسد الزرع وتبتلع كل نباتٍ اخضر . واحيانًا ياتي الوباء ويهلك الوفًا كثيرة من الناس . اما الآن فقد ضعفت قوة الامراض الوبائية اولاً بسبب اعتناء ولاة الامور بالكورنتينا والتدابير الحسنة لحفظ الصحة العامة ثانيًا بسبب تقدم الناس في هذا العصر الى درجة سامية من التمدن في المعيشة والرفاهية

فنرى مما تقدم ان اسيا هي ارض العجائب والغرائب في تاريخها وجغرافيتها وانها اكبر اقسام الارض . فيها اعلى الجبال واكثر انواع الحيوانات والمحصولات وفيها تظهر احسن الفصول وسكانها اكثر عددًا من بقية القارات . ومما يزيدها اعتبارًا وشرفًا انها هي الارض التي خُلِق الانسان فيها ومنها امتلأت الارض سكانًا وتفرَّقت في العالم وفيها حدثت اغرب الحوادث المتعلقة بتاريخ البشر وفيها ايضًا وُلد اعجب واعظم الاشخاص الذين عاشوا في هذا العالم وفيها ظهرت الانبياء وانتشرت اكثر المذاهب الدينية وفيها ايضًا صنع الله القدير عجائبهُ العظيمة . وهي التي ارتقى اهلها في سالف الازمنة الى درجة سامية في الصنائع والمعارف بينما كان باقي اهل العالم تائهًا في قفر الجهالة والتوحش

الفصل الثاني

في الخليقة والطوفان وتشعب الارض ثانيةً

كان خلق العالم منذ نحو ستة الاف سنة وتفصيل حدوثهِ مذكور بعباراتٍ رائقة واضحة في الاصحاح الاول من سفر التكوين

اما آدم وحواء فخلقهما الله عزّ وجل ووضعهما في بستان عدن الذي هو في القسم الغربي من اسيا بالقرب من نهر الفرات وقد كانا الشخصين الوحيدين في هذا العالم ولم يكونا يشعران بالوحدة لان الله كان معهما . ثم ولد لهما اولاد وعلى تمادي الايام كثر نسلهما جدًّا وابتنوا لهم قرًى ومدنًا في تلك الجهات المجاورة للفرات وسكنوها ولكنهم زاغوا اخيرًا وارتكبوا الشرور وتركوا عبادة الله حتى امتلات الارض ظلمًا منهم

ولما رأى الله ان شر الانسان قد كثر على الارض وان كل تصوُّر افكار قلبهِ انما هو شرير قصد اهلاكهم وابادتهم بالطوفان ولم تكن تلك الدينونة التي نزلت بهم قصاصًا لهم فقط بل موعظةً وانذارًا لجميع شعوب الامم في القرون المستقبلة ليعلموا بان الشر والويل يعقبان الخطية

ومما يستحق العجب انهُ لم يكن بين تلك الطوائف المذكورة رجلٌ صالحٌ غير نوح فسرَّ الله ان ينجيهُ مع عائلتهِ من ذلك البلاء فاعلمهُ بقصدهِ وامرهُ ان يبني لنفسهِ فلكًا ليعوم على الماء وان يدخل ذلك الفلك هو وبنوهُ وامرأتهُ ونساء بنيهِ ويُدخِل معهُ ازواجًا من اجناس الحيوانات والدبابات والطيور لكي يملأوا الارض ثانيةً بعد اتمام حكمهِ . ففعل نوح كما امرهُ الله وبعد ان صاروا جميعًا داخل الفلك انفتحت كوى السماء وانفجرت كل ينابيع الغمر وغطت

المياه جميع الارض ومات كل ذي جسدٍ كان يدب على الارض من الطيور والبهائم وجميع الناس واما الفلك فكان عائمًا بدون خطر على وجه المياه

فهكذا انقطعت جميع الشعوب واندرست واصبحت الارض ثانيةً بعائلةٍ واحدةٍ من جنسنا البشري . وكان وقوع هذه الحادثة المخيفة بعد الخليقة بالف وست مئة وست وخمسين سنة . وكان حدوث الطوفان على راي الاكثرين في شهر تشرين الثاني وان الامطار كفت في شهر اذار وبعد ذلك جفت المياه

وكان الفلك قد استقر على راس جبلٍ عالٍ في بلاد ارمينية يقال له اراراط لم يزل الى يومنا هذا . فخرج حينئذٍ نوح مع عائلتهِ من الفلك ومنهم تشعبت الارض ثانيةً . اما الحيوانات فتفرّقت الى كل الجهات وفي مدة اجيالٍ قليلة ملات الارض

فانطلق بنو نوح مع عيالهم الى ارض شنعار الواقعة في جنوب جبل اراراط بالقرب من نهري الفرات ودجلة واستوطنوا هناك وكانوا يزدادون يومًا فيومًا حتى انهم في مدة مئة سنة بعد الطوفان صاروا شعبًا عظيمًا . وكان الى ذاك الوقت لم يزل اكثر اهل بيت نوح احياء فكانوا يخبرون اولادهم كيف طافت المياه وغطّت وجه الارض وكيف اهلكت جميع الناس والحيوانات ما عدا الذين التجأوا الى الفلك وكان الذين بلغهم خبر الطوفان يخافون جدًّا ان يجلب شر البشر عليهم قصاصًا ثانيًا نظير ذلك فاجمع رايهم على بناء برج عظيم لكي يلتجئوا اليهِ وقت الحاجة ويتخلصوا بهِ من الغرق والهلاك فشرعوا في تأسيسهِ على شاطئ نهر الفرات الى جهة الشرق واجتهدوا في قامتهِ غاية الاجتهاد حتى رفعوهُ عن الارض مسافة ليست بقليلة وربما كانوا قاصدين بجهلهم ان يصلوا بهِ الى الجو ومن هناك الى السماء ولكن مع كل اجتهادهم وتقدمهم في البناء كانت الشمس والنجوم لا تزال بعيدة عنهم كبعدهم عنها عند بداءة مشروعهم في هذا العمل

فاتفق ذات يوم انهُ بينما كان هولاء الجهلة منهمكين في ذلك حدث

امرٌ عجيب يستحق الذكر وهو ان الله سبحانهُ وتعالى بلبل السنتهم حتى لم يعُد يفهم احدهم كلام الآخر ومن الاختلاف في الفهم نتج الاختلاف في الاراء بين الروساء والمرؤوسين

فهذه الحادثة العجيبة اقلقتهم وشوشت افكارهم حتى اضطروا ان يكفوا عن بناء البرج والصعود الى السماء . ولما خاب املهم وحبط عملهم تأسفوا غاية الاسف على عدم نجاحهم وعزموا على الانتقال من هناك والجولان في اقطار العالم . والمظنون ان كل فرقةٍ منهم من كانت تتكلم بلغةٍ واحدة تجمعت وانضم بعضها الى البعض وذهبت الى جهةٍ معلومة من الارض . ودُعي اسم ذلك البرج برج بابل الى يومنا هذا

وقد سبق القول ان الارض تشعبت بعد الطوفان باولاد نوح وهم سام وحام ويافث . وكان ليافث هذا سبعة بنين

الاول جومر وهو الذي هاجر الى الشاطئ الشمالي من البحر الاسود ومن ثم تفرق نسلهُ غربًا وسكنوا في الجنوب الغربي من اوروبا وفي جزائر بريطانيا واكثر الاوروبيين من نسلهِ . وقد كان لجومر ثلثة بنين الاول اشكناز ومحلهُ الشاطئ الجنوبي من البحر الاسود . الثاني ريفاث ومحلهُ شرقي اشكناز . الثالث تجرمة ومحلهُ الجانب الشرقي من ريفاث

الثاني ماجوج ومحلهُ بلاد التتار الشاطئ الشمالي من بحر الخزر واكثر سكان اواسط اسيا من نسلهِ كالمغول . الثالث مادي ومحلهُ شمالي بلاد العجم . الرابع ياوان ومحلهُ بلاد اليونان وباسمهِ سمى دانيال النبي اهالي هذه البلاد . وكان لياوان هذا اربعة بنين الاول اليشة ومحلهُ هلاس وهي الولاية الجنوبية الغربية من بلاد اليونان . الثاني ترشيش ومحلهُ كيليكيا في اسيا الصغرى في الاناضول وباسمهِ سميت مدينة ترسيس وذهب بعضهم الى ان من نسلهِ مَن سكن ايضًا في بلاد اسبانيا . الثالث كتيم ومكانهُ عند شطوط بحر ايطاليا وبلاد اليونان . الرابع دودانيم ومكانهُ البانيا اي بلاد الارناوط جنوبًا من

مدينة تريسته ويظن ايضًا انهُ سكن في نواحي مرسيليا في جنوب فرنسا . الخامس توبال ومحلهُ بجوار ماجوج وبين البحر الاسود وبحر الخزر . السادس ماشك ومسكنهُ في جوار توبال وماجوج وقد سكن بعض نسلهِ على شواطي بحر البلتيك ومنهُ تسلسل بعض المسكوبيين . السابع تيراس ولا يعلم محل سكناهُ والمظنون ان نصف اهل الارض من نسل يافث

واما حام فكان لهُ اربعة بنين . الاول كوش وكان لهُ ستة بنين ومحلهُ غربي بلاد العرب وقد سكن اكثر نسلهِ افريقيا ومنهم من سكن عند الشطوط الشمالية من خليج العجم وامتدَّ شمالاً الى ما بين النهرين . ويظن ان اكثر اهالي افريقيا من نسلهِ لانهم كانوا ينسبون اليهِ وان بنيهِ جميعًا سكنوا بلاد العرب وافريقيا ما عدا نمرود فانهُ سكن على الفرات وهو الذي اسس مدينة بابل . الثاني مصرايم ومحلهُ مصر ولذلك سميت مصرًا نسبةً اليهِ وقد تفرع منهُ سبع قبائل الاولى لوديم ومحلها غربي مصر . الثانية عناميم وهذه كانت من القبائل الرُحَّل . الثالثة لهابيم سكنت جنوبي اوديم . الرابعة نفتوحيم ومحلها على شاطي البحر في الجهة الغربية من مصر والمظنون ان نبتون (اله البحر عند الاقدمين) ماخوذٌ منها . الخامسة فتروسيم ومحلها مصر العليا . السادسة كسلوحيم ومحلها بين مصر وارض كنعان على شط البحر ومنها الفلسطينيون . السابعة كفتوريم ومحلها جزيرة قبرس . الثالث فوط وقد سكن شمالي افريقيا ونسلهُ مذكور مع كوش ولود . الرابع كنعان ومحلهُ الارض المنسوبة اليهِ وهي هذه البلاد . وكان لهُ ابنان الاول صيدون وهو الذي بنى المدينة المدعوَّة باسمهِ اي صيدا ويظن انها اقدم مدن العالم . والثاني حِثّ . وقد خرج منهُ غير هذين الولدين تسع قبائل سكنت ارض كنعان الى ايام يشوع بن نون

واما سام فكان لهُ خمسة بنين . الاول عيلام ومحلهُ جنوبي بلاد العجم . الثاني اشور ومنهُ الاشوريون الذين كانوا مستعبدين لنمرود وكوش . الثالث ارفكشاد وقد توطن بين النهرين ومن نسلهِ خرج ابرهيم خليل الله . وكان لهُ ولد وهو

شالح الذي ولد عابر المأخوذ منهُ اسم العبرانيين ولهُ فالج ويقطان وكان ليقطان اخي فالج ثلثة عشر ولدًا منهم قبائل بلاد العرب المخصبة وسكن الاسمعيليون بينهم . الرابع لود ومنهُ اللوديون ومحلهم برالاناضول . الخامس ارام ومحلهُ بين النهرين ولذلك سميت هذه الارض سهل ارام وكان لهُ اربعة بنين. الاول عوص ومحلهُ عند راس خليج العجم . الثاني حول ومحلهُ عند مخرج نهر الاردن حيث يدعى باسمهِ . الرابع ماش وقد سكن الاناضول ايضًا

فيتبين لنا مما تقدم ان اكثر اهالي اوروبا وشمالي اسيا ايضًا من نسل يافث وان اهل اواسط اسيا من نسل سام واما اكثر اهالي افريقيا فمن نسل حام. واما بلاد اميركا وجزائر البحر فقد عمرت من اسيا وافريقيا بانتقال بعض الناس اليها وتوطنهم بها مارّين ببوغاز بيرين الذي يظن انهُ كان برزخًا

وقد اكتشف بعض السياح المتأخرين على شاطي الفرات تلًّا كبيرة من اللبن مجبولاً بالحمر مجففًا بالشمس والارجح ان هذه التلة من آثار خراب برج بابل الذي شرع بهِ اولئك القوم يبنونهُ من نحو اربعة الاف سنة

الفصل الثالث

في مملكة اشور

الباب الاول

في نينوى وبابل

اشتهرت هذه الدولة بالدولة الاشورية نسبةً الى اشور بن سام بن نوح اول ملوكها وكان من امرها انهُ عند تفرق الناس في العالم كما سبقت

الاشارة استوطن منهم جماعة في بلاد شنعار بالقرب من برج بابل وتمكنوا فيها وكانت حارّة الهواء ومخصبة التربة فكسوها بالمدن والقرى . ولما حسنت احوالهم وانتظمت امورهم اتحدوا وارتبطوا معًا وصاروا امّة مستقلة وكانت اول مملكة في العالم . وكان موقعها شرقي الدجلة يحدها شمالاً بلاد الارمن وغربًا ما بين النهرين وشرقًا بلاد مادي وجنوبًا بابيلونيا وكانت وقتئذٍ منفصلة عن مملكة اشور . واول ملوك هذه الدولة اشور المذكور وباسمهِ دُعيت البلاد كما مرّ . وكان ملكًا مقتدرًا ذا شوكة عظيمة وهو الذي بنى مدينة نينوى سنة ٢٢٢٩ ق م وبنى لها سورًا منيعًا بلغ ارتفاعهُ ٥٠ ذراعًا واقام لوقايتها وصيانتها خمسة عشر برجًا علوّ كلٍّ منها مئة ذراع . قيل ان المدينة كانت كبيرة متسعة حتى لم يكن احد يستطيع ان يدور حولها ماشيًا باقل من ثلاثين ساعة . وقد اكتشف احد السياح مؤخرًا بين خرائبها بعض عاديّات مردومة وتصاوير منقوشة ومرسومة على التماثيل والاحجار فنقلت بعضها الى بلاد الانكليز وبعضها الى فرنسا وغيرها من البلاد الاوروبية

واما بابل عاصمة بابيلونيا فهي مدينة كبيرة شهيرة اعظم من نينوى اتساعًا واجملها رونقًا وحسنًا بناها نمرود حفيد حام اي الابن السادس لكوش ابن حام الذي كان معاصرًا لاشور المذكور . وكانت هذه المدينة قائمة في وسط سهلٍ فسيح وارضٍ مخصبة جدًّا يخرقها نهر الفرات جاريًا في وسطها من الشمال الى الجنوب . ويحيط بها سوران عظيمان يبلغ محيطها ستين ميلاً وعرضها سبعًا وثمانين قدمًا بحيث تجري فوقها ست مركبات صفًّا واحدًا وارتفاعها ثلثماية وخمسين قدمًا وكان لها مئة باب من نحاس من كل جهة خمسة وعشرون بابًا وكان لها ايضًا خمس وعشرون سوقًا تمر من جانب الى جانب شرقًا وغربًا وكذا شمالاً وجنوبًا اي سوق ممتدة من كل باب الى ما يقابله في الجهة المقابلة وانقسمت المدينة بهذه الاسواق الى ٦٧٦ مربعًا بنيت البيوت حولها وفي وسطها احسن البساتين والمتنزهات . وكان في وسطها هيكل بعل اله الاشوريين بنته

الملكة سميرامس الآتي ذكرها واقامت فيهِ تمثالاً من ذهب للصنم المذكور علوهُ ٤٠ قدماً وكان من اعظم الهياكل واعلى من كل ما بناهُ البشر يبلغ ارتفاعهُ ٦٦٠ قدماً وهو اعلى من اعظم الاهرام المصرية وقد وصفهُ هيرودوتس المؤرخ اليوناني فقال انهُ كان مربع الشكل ومساحتهُ من كل الجهات ٤٠٠ ذراع وفي وسطهِ برجٌ عظيم يبلغ ارتفاعهُ سمانية قدم . ويعلو هذا البرج سبعة ابراج علوّ كل واحدٍ منها ٧٥ قدماً . وكان في البرج الاخير مسجد فيهِ مائدة من ذهب وفي البرج الاسفل مسجد آخر فيهِ تمثال من ذهب وبقربهِ مائدة وكرسي من ذهب يساوي ثمنها نحو ٢٢٥ مليونًا من القروش وكان خارج هذا المسجد مذبحان احدهما من ذهب يقدمون عليهِ الذبائح وهي من اناث الحيوانات واما الاخر فكان عظيماً جدًّا قد اعدوهُ لتقديم الذبائح المعتادة . وكانوا يوقدون عليهِ كل سنة في عيد الاله المذكور ٣٠٠٠ اقة بخور

الباب الثاني

في اخبار الملكة سميرامس

وكانت الملكة سميرامس المقدم ذكرها زوجة الملك نينوس الذي كان قد انفرد باحكام مملكة اشور واستولى على جميع الممالك الواقعة بين نهر الهند والبحر المتوسط فتولّت على المملكة بعد وفاة زوجها وبذلت الهمة في تحسين مدينة بابل وترميمها فاقامت فيها الابنية العظيمة والهياكل المنتظمة وانشأت القصور والبساتين والترع والقناطر وغير ذلك من المباني المزخرفة والمتنزهات البهجة

ومن العجائب ان هذه الملكة لم تكتفِ بما كانت عليهِ من العظمة والجاه وطيب العيش بل اهاجها الطمع الى الاستيلاء على باقي ممالك الدنيا فجمعت جيشًا عظيمًا وزحفت بهِ على بلاد هندستان في الجنوب الشرقي من مملكة اشور

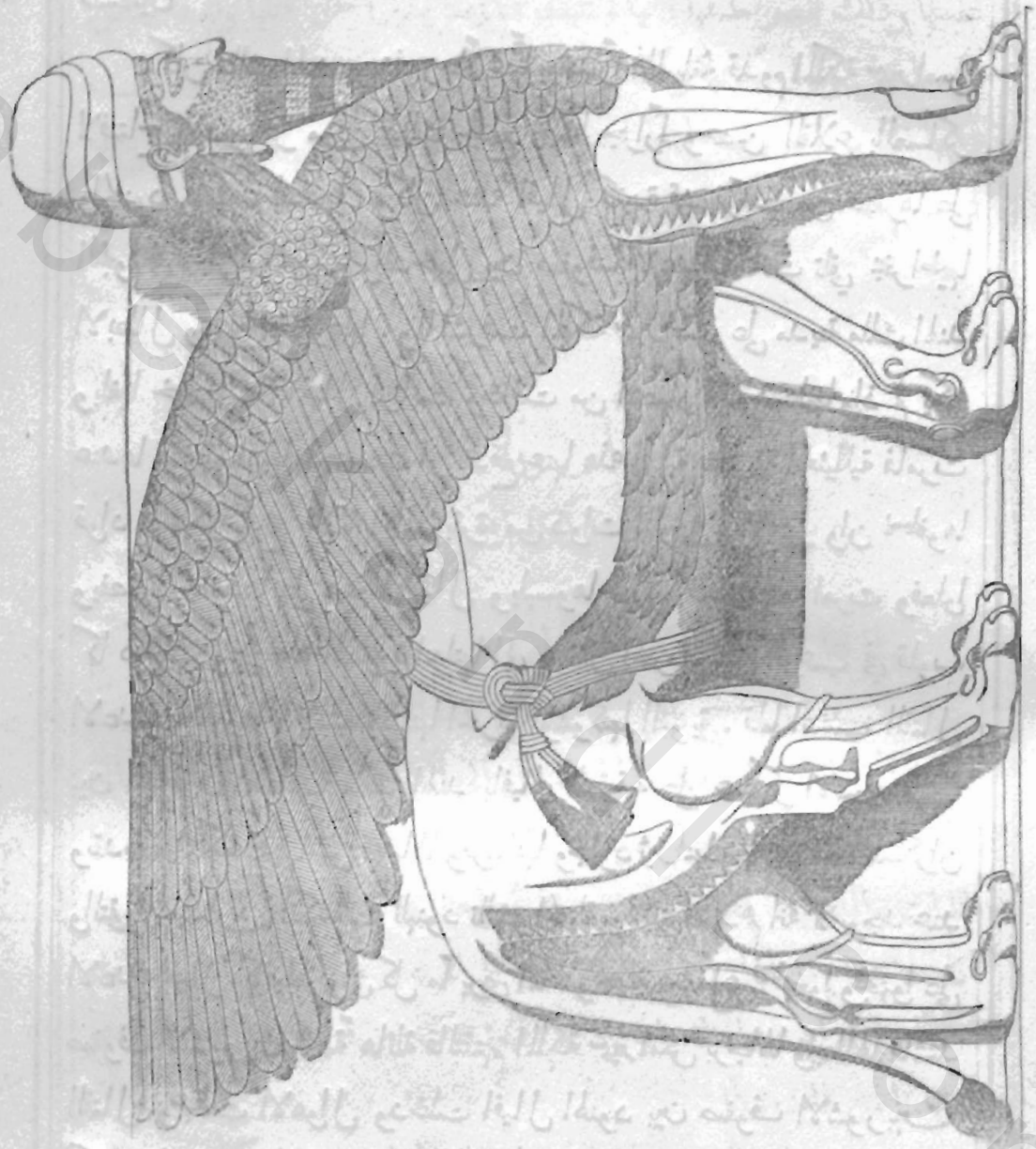

سبع اشوري براس انسان واجنحة طائر دلالة على القوة والمعرفة في مملكة اشور

بعد ان كانت قد استظهرت على بلاد مصر والحبشة واستولت على جميع مدن فلسطين

وكان ملك الهند يومئذٍ رجلاً غنيًّا مقتدرًا فلما بلغهُ قدوم الملكة سميراميس لافتتاح بلادهِ تأثر من ذلك فجمع جيشًا جرارًا وحصن القلاع بالعساكر والجنود واستعدَّ لدفعها . وكان عندهُ افيال كثيرة قد تمرَّنت من صغرها على الهجوم في معارك الحرب والدخول بين صفوف الاعداء فكانت تلقي بخراطيمها الابطال وتدوسهم بارجلها . ولما اشرفت الملكة سميراميس على مدينة ملك الهند وبلغها خبر تلك الافيال ارتابت وخافت من انتصار الهنود عليها واذ لم يكن عندها قوَّة تضاهيها اجتهدت ان تدفع عنها هذه البلية بطريقة احتيالية فامرت قواد العسكر بذبح ثلاثة الاف بقرة من ذوات اللون الاسمر وان يسلخوها ويفصلوا جلودها على هيئة الافيال ويلبسوها للجمال فامتثلوا ما امرت وفعلوا كما ذكرت وعلى هذه الصورة انزلتها الى ميدان الحرب لتلقي الرعب في قلوب الاعداء باظهارها لهم استعداداتها الحربية وشوكتها القوية . فلما انتشب القتال بين الفريقين انعطف ملك الهند بافيالهِ الحقيقية على عساكر الاشوريين وتقدمت الملكة سميراميس بجمالها وفرسانها وجلود ثيرانها ولما اقترب العسكران والتقى الجيشان انكشفت للهنود تلك الحيلة وتحقق عندهم انهُ لا يوجد عند الاعداء افيال كأفيالهم وان كل ما يرى انما هو حيلة وخداع فتشجعوا وهجموا على صفوف الاشوريين هجمةً هائلة فالتقتهم الملكة سميراميس برجالها وابطالها فاشتد القتال وعظمت الاهوال ودخلت افيال الهنود بين صفوف الاشوريين فكانت تخطف الرجال عن خيولها وتدوسها فما لبثت الجمال المصنعة الى ان ولَّت الادبار وطلبت النجاة والفرار ولم تكن الا برهة يسيرة حتى انكسر جيش الاشوريين وتفرق وتشتت شملهُ وانتصرت الهنود انتصارًا عظيمًا وكسبت غنائم جسيمة وكانت الملكة سميراميس قد جرحت جرحًا عميقًا ولكنها فازت بالهزيمة بسبب خفة فرسها ورجعت الى بلادها بالخيبة بعد تلك السطوة والهيبة وتقاعدت

عن الحروب ولكنها لم تلتذ فيما بعد بمتنزهاتها وبساتينها التي كانت قد انشأتها لنفسها وذلك لتصر مدتها لانها لم تلبث الاَّ زمناً يسيراً حتى قتلها ولدها نيناس على ما قيل وتولى مكانها وهكذا انقضت حياة هذه الملكة العظيمة التي كان دابها الغزو والحروب طمعاً بالفتوحات والغنائم عوضاً عن ان تصرف مدتها في تنظيم مملكتها ونجاح امتها

الباب الثالث

في ذكر الملك نيناس وولاية الملك سردنفول وخراب مملكة اشور الاولى

ولما قتل نيناس امهُ كما تقدم جلس على سرير المملكة وتقلد زمام الاحكام وكان جلوسهُ قبل المسيح بالفي سنة او ٢٥٠ بعد الطوفان وكان رجلاً شريراً قبيحاً ذميماً فاتر الهمة ضعيف الرأي يميل الى الكسل والانفراد لا يلتفت الى الحكومة ولم يكترث بحفظ ناموس السلطنة بل صرف زمانهُ داخل قصرهِ في اللذات والشهوات فمقتهُ الشعب ورذلوهُ واحتقروهُ وتكلموا فيهِ كلاماً قبيحاً واذ كان لا يجهل ما تقول الناس عليهِ حاذر على نفسهِ من الغدر والخيانة فاقام حراساً على ابوابهِ للمحافظة عليهِ ولا نعلم بالحقيقة كيف انتهت ايامهُ لان التاريخ لا يفيدنا من ذلك شيئاً

ثم مضى على ذلك مدة ثمانماية سنة لا نعلم ماذا جرى في مملكة اشور فان المؤرخين لم يذكروا شيئاً من اخبارها ولذلك ضربنا عنها صفحاً والمظنون ان اكثر ملوكها الذين استولوا عليها في اثناء هذه المدة ليس لهم مآثر ولا فضائل بل كانوا اشبه بنيناس يصرفون اوقاتهم بالملاهي والرذائل ولم يكن لهم من الشهرة ما يستحق الذكر

وتبوأ بعد ذلك سرير مملكة اشور الملك سردنفول فكان شابًّا جميلاً ولكنهُ كان متوانيًا مهانًا لا يبالي بامر المملكة ولا يهمهُ نجاح الشعب وكان يقضي ايامهُ ولياليهُ في السكر واللذات ويتسلى بمجالسة النساء والمحادثة معهنَّ ويتخلق باخلاقهنَّ ومن غريب اعمالهِ انهُ كان يتزيى بلبسهنَّ في اكثر الاحيان وبهذه الصفة المضحكة كان يجلس بينهنَّ ويساعدهنَّ في الغزل فصار مرذولاً ومُبغَضًا عند اكثر الناس ولهذا اعتمد رئيسان من اكابر قوادهِ ان يهدما سلطتهُ ويستوليا على مملكتهِ وهما ارباسيس رئيس عسكر بلاد مادي التي كانت يومئذٍ من جملة الولايات التابعة لمملكة اشور وبيليزيس قائد جيوش مدينة بابل وما يليها فاشهرا راية العصيان وجمعا اربعين الف مقاتل وهجما على مدينة نينوى واقاما عليهِ حربًا وحاصراهُ اشدَّ الحصار حتى لم يمكنهُ الفرار. فلما يئس من السلامة ولم يرَ لنفسهِ وجهًا للهزيمة داخلهُ الخوف وعلم انهُ اذا بقي في قيد الحياة ربما يؤخذ اسيرًا ويصير عبدًا فلم يسعهُ الا ان جمع خزائن امواله وما ملكت يداهُ من الذخائر في قاعة كبيرة وجعلها كومة واحدة واضرم فيها النار فاحترقت بهِ مع كل من كان في القصر من محافظيهِ ونسائهِ وسراريهِ. وكان حدوث هذه الواقعة الهائلة سنة ٧٦٠ ق م

عسكري اشوري مدرع

وهكذا انتهت مملكة اشور الاولى واقتسمها المشتركان في هذه الدسيسة فتقلد ارباسيس المذكور زمام بلاد مادي وتسمى عليها ملكًا مستقلاً. واستولى بيليزيس على مدينة بابل وسمي ملكًا عليها الى سنة ٧٤٧ ق م

وكان لسردنفول ولد اسمهُ فول فلم يبقَ لهُ من مملكة اشور سوى مدينة

نينوى فجلس عليها ملكًا من سنة ٧٥٩ الى سنة ٧٤٢ وهو الذي اقام حربًا على الاسرائيليين في ايام منحيم احد ملوك اسرائيل واخذ منهُ الف وزنة من الفضة حتى رجع عنهُ . وخلف الملك فول على نينوى ابنهُ ثغلث فلاصر من سنة ٧٤٢ الى سنة ٧٢٤ وكان شجاعًا مرهوبًا ظافرًا في حروبهِ ومغازيهِ ولاسيما في وقائعهِ مع ملوك سورية واسرائيل . وهو الذي انتصر الملك آحاز بن يوثام من ملوك يهوذا وامدَّهُ بالعساكر والمهمات على قتال الاراميين وافتتح دمشق وسبى اهلها

الباب الرابع

في ذكر بعض مشاهير ملوك اشور

وخلف ثغلث فلاصر المذكور ابنهُ شلمناصر سنة ٧٢٤ قبل المسيح . وكان جبارًا مقتدرًا فاقام حربًا على ملوك سورية وحاصر مدينة صور زمانًا طويلاً وعجز عن الاستيلاء عليها . ولهُ دفع هوشع ملك اسرائيل الجزية . وهو الذي سبى عشرة اسباط اسرائيل الى اشور واتى بقومٍ من اهل مملكتهِ واسكنهم مدن السامرة والبهم انتسبت طائفة السمرة

وخلف شلمناصر ابنهُ سنحاريب سنة ٧١٢ قبل المسيح وسلك مسلك ابيهِ في المغازي والحروب المتتابعة فحارب اليهود وانتصر على ملوك مصر والحبشة وخرب مدنها ونهبها مدة ثلاث سنين واتى منها بغنائم عظيمة واموال جسيمة ثم حاصر القدس في ايام الملك حزقيا وتهدَّد شعب اليهود وضايقهم فارسل الرب ملاكهُ ليلاً وقتل من جيشهِ ... ١٨٥ رجل فارتد راجعًا الى بلادهِ مهزومًا مقهورًا وعند وصولهِ الى نينوى بنى ابنية جديدة واتقنها . واتفق انهُ بينما كان ذات يوم ساجدًا في هيكلهِ امام الالهة دخل اثنان من اولادهِ

وقتلاهُ . ولكن لم ينجحا بهذا العمل فانهما التزما ان يهربا الى بلاد ارمينيا ويتركا الملك لاخيهما اسرحدُّون . وقد اكتشف العلامة الحاذق مستر لايرد الانكليزي في هذه الايام صورة سنحاريب الملك مع بعض التماثيل وصور اخرى بين خرَب مدينة نينوى وهي الان في قصر الآثار القديمة في مدينة لندن . ويقال ان الصورة المنقوشة على الصخرة تجاه نهر الكلب شرقي بيروت هي صورتهُ

ثم استقلَّ بالملك بعدهُ ابنهُ اسرحدُّون المذكور من سنة ٧٠٣ الى سنة ٦٦٧ ق م وفي سنة ٦٨٠ استولى اسرحدُّون على بابل وتسلط على جميع اقاليمها ولما قويت شوكتهُ جهز جيشًا عظيمًا وزحف بهِ الى سورية فحارب ملوكها نظير اسلافهِ وقهرهم وادخلهم تحت الطاعة والانقياد ثم سار الى فلسطين فاسر الملك منسى بن حزقيا وارسل قومًا من اهل بلادهِ للاقامة في مدن السامرة . ومن اشهر ملوك بابل الملك نبوخذنصر الاول تبوَّأ سرير الملك سنة ٦٠٥ ق م وكان ملكًا عظيمًا ذا قوة وشوكة وثروة جسيمة ولم يكن دابهُ الاَّ توسيع مملكتهِ بالفتوحات والانتصارات وقد بلغ من درجة المجد والفخار مبلغًا عظيمًا وهو الذي استظهر على بلاد اليهودية وافتتح مدينة القدس واسر يهوياكيم ملك يهوذا وسبى كل شعب اليهود مع ملكهم صدقيا بعد ما قلع عينيهِ واحرق المدينة بالنار . وكان قد افتتح مدينة صور بعد حصار ثلاث عشرة سنة واخضعها ثم سار الى مصر وغلبها واخذ منها غنائم وافرة استخدمها في تحسين بابل وضرب على اهاليها خراجًا معلومًا يدفعونهُ كل سنة ووضع عليها النواب والعمال . ولما رأى ذاتهُ مكالاً بنجاح لا مزيد عليهِ اغتر بشوكتهِ وعظمتهِ فبغى وتجبر وطغى وتكبر ونظم نفسهُ في سلك الآلهة وطلب من الشعب ان يعبدوهُ ويسجدوا لتمثالهِ الذهبي الذي اقامهُ لنفسهِ فضربهُ الله بالجنون فكان يظن انهُ تحول الى صورة بقرة فخرج الى البرية واقام بين الآجام والغابات مدة سبع سنين وتولت مكانهُ زوجتهُ الملكة نيتوكريس . وعند نهاية تلك المدة تاب ورجع الى الله فحكم سنة واحدة ثم توفِّي

سنة ٥٦٢ ق م

صورة ملك اشوري وجدت في خرائب نينوى

وتولّى بعدهُ ابنهُ اويل مرودخ وكان هذا الملك محبًّا لدانيال النبي وهو الذي اطلق سبيل يهوياكيم ملك يهوذا من الاسر وقدمهُ على سائر الملوك الساقطين ومنحهُ المكان الاول في الجلوس على المائدة . وانتهى الحال بهذا الملك انهُ مات قتيلاً في حربٍ اقامها عليهِ الفرس والماديون تحت قيادة كورش بعد ان حكم نحو ثلاث سنين . ثم جلس على سرير المملكة بعدهُ بلشاصر ابنهُ وكان منهمكًا في اللذات لا يلتفت الى الاحكام ولا يسأل عن احوال الرعايا وصرف اوقاتهُ بالولائم واللذات ولذلك سلم عنان الاحكام الملكة نيتوكريس فكانت

تنوب عنهُ وتشاركهُ في الحكم ولبث اشتراكها معهُ مدة عشرين سنة . واتفق في اواخر هذه المدة انهُ بينما هو مولم وليمة عظيمة ذات يوم وعاكف على الشرب والانشراح امر باحضار الاواني الذهبية التي كان نبوخذنصّر جدهُ قد سلبها من هيكل اورشليم فاستخدمها في شرب الخمر فظهرت لهُ يد كتبت على الحائط بعض كلمات غير مفهومة فدُهِش هو وجميع الحاضرين من تلك الكتابة المبهمة واستدعى اليهِ جميع السحرة ليفكوها ويفسروها لهُ واذ لم يمكنهم تفسيرها احضر اليهِ النبي دانيال وطلب منهُ ان يبين لهُ معانيها فوبخهُ النبي على تنجيس اسم الله ثم فسر لهُ معنى تلك الكلمات الدالة على فقد حياتهِ وفقد المملكة ايضاً من ايدي ذريتهِ عن قريب ففي تلك الليلة نفسها قُتِل بلشاصر بسبب فتنةٍ اهاجها رجلان من اشراف المملكة كان قد اساء اليهما واضرّهما جدًّا

وتولى بعدهُ ابنهُ لابورا سوارخاد سنة واحدة واستبدَّ بزمام المملكة بعدهُ كياكسار الثاني وهو داريوس المادي ابن استياج سنة ٥٣٨ ق م . وداريوس هذا هو الذى امر بطرح دانيال في جب الاسود بسبب وشاية بعض القواد الذين كانوا يحسدونهُ ولكن لما انقذهُ الله من تلك المهلكة زادت كرامتهُ في عيني الملك واظهر لهُ ميلهُ الخاصّ وقلده الوزارة العظمى على جميع الروساء والقواد وجعلهُ من اكبر ولاة الامور كما سنبين ذلك في الكلام على اخبار العمرانيين

الباب الخامس

في ديانة الاشوريين وفنونهم

وكان الاشوريون يعبدون الكواكب ويعظمونها ويعتقدون ألوهية

بعض افراد الرجال وكان عندهم لكل كوكب صنمٌ منها صنم بعل الذي بنت له الملكة سميرامس الهيكل الكبير وهو من اعظم معبوداتهم وسموهُ اله الارض الاكبر لانهُ كان رمزًا عن الشمس . ومن جملة الهتهم نسروخ ومعناهُ نسرٌ عظيم .

نسروخ اله اشوري

ومنها ايضًا ما كان على صورة السمك . وكانوا يعبدون الملكة سميرامس المقدم ذكرها واقاموا لها صورًا منقوشة بهيئة حمامة لزعمهم انها تحوَّلت الى هذا الجنس

من الطيور بعد موتها . وكان لهم معرفة تامة بالصنائع وانواع الفنون وكانت ابنيتهم عظيمة كابنية المصريين مزخرفة بانواع النقش والحفر والتصوير وهم الذين اخترعوا المزاول وعرفوا حركات الكواكب . وكان لهم في علم الطب باعٌ طويلٌ فكانوا ياتون بالمرضى ويضعونهم في الازقة ومعابر الطرق بقصد انهُ اذا مر عليهم احد ممن قد أُصيب بذلك الداء المصاب بهِ المريض حينئذٍ يعلمهم سبب شفائهِ من تلك العلة وبهذه الواسطة مارسوا علم الطب جيدًا حتى برعوا فيهِ واتقنوهُ غاية الاتقان وكانوا يكتبون اسماء العلاجات المفيدة على الواحٍ ويعلقونها في هيكل اله الطب

اله سمك من آلهة الاشوريين

الفصل الرابع

في تاريخ العبرانيين

الباب الاول

في ذكر ابرهيم وارتحال يعقوب واولادهِ الى مصر

راس العبرانيين وجدّهم ابرهيم بن تارح وُلد بعد الطوفان بنحو ٣٠٠ سنة في بلاد الكلدانيين في الجهة الجنوبية من مملكة اشور وكانت تابعة لها . والمحقق ان اليهود من نسل سام كما يستدل من لغتهم التي هي قريبة من العربية والسريانية والكلدانية

واشتهر الكلدانيون قديمًا بالمعارف والفنون وبرعوا في علم الهيئة والنجوم حتى كان الرومانيون في الازمنة الاخيرة يستدعونهم ويستخدمونهم في الامور ذات الشان . وكانوا مع حذاقتهم وبراعتهم يعبدون الاوثان ويسجدون للشمس والقمر والنجوم دون الحي القيوم . واما ابرهيم فكان يعبد الاله الحقيقي . وكان في اول امرهِ يرعى الغنم في سهول تلك البلاد واستمر على ذلك حتى توفي ابوهُ ثم امرهُ الله ان يخرج من وطنهِ ويذهب غربًا الى ارض كنعان شمال بلاد العرب وشرقي بحر الروم وهي الارض المعروفة اليوم بفلسطين ووعدهُ بان تلك الارض سوف تكون ملكًا لذريتهِ فامتثل ابرهيم امر الله وارتحل مع زوجتهِ سارة وباقي خدمهِ ومواشيهِ وكانوا يجولون من مكان الى مكان ساكنين في الخيام . ولم يكن لابرهيم ولد فرزقهُ الله اسمعيل من هاجر ثم اسحق من سارة وكان يحبهُ كثيرًا فامتحنهُ الله وامرهُ ان يذبحهُ تقدمةً لهُ فاجاب بالسمع والطاعة ولما رأى الله قوة ايمانهِ ارسل لهُ ملاكًا يامرهُ ان لا يفعل ذلك . ولا يسعنا المقام في هذا المختصر ان نذكر بالتفصيل اخبار ابرهيم فنقول بوجه الاختصار انهُ

بيع يوسف للاسمعيليين

كان خليل الله عاش من العمر ١٧٥ سنة وتوفي في حبرون وهي المعروفة الان بمدينة الخليل ودُفِن بجانب زوجتهِ سارة في مغارة المكفيلة وهي لم تزل الى يومنا هذا ويقصدها كثير من السياح

واما اسحق بن ابرهيم فرُزق ولدين وهما عيسو ويعقوب فاشترى يعقوب من اخيهِ عيسو بكوريتهُ باكلةٍ من العدس وبعد ذلك اكتسب من ابيهِ بالحيلة البركة التي كانت معدة لعيسو فصار هو الوارث للبركة والموعد عوضًا عن اخيهِ البكر. ورُزق يعقوب اثني عشر ولدًا وهذه اسماؤُهم راوبين. شمعون لاوي. دان. يهوذا. نفتالي. جاد. اشير. يساخر. زبلون. يوسف. وبنيامين. ومن هولاء تسلسلت اسباط بني اسرائيل الاثنا عشر. اما يوسف احد اولاد يعقوب فكان اخوتهُ قد باعوهُ للاسماعيليين فاخذوهُ الى مصر وباعوهُ عبدًا سنة ١٧٣٩ ق م وبعد ما اقام ١٤ سنة في الاسر تقدم في باب فرعون طوطميس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة كما سنبين ذلك باكثر وضوح في الكلام على تاريخ مصر وكان الواسطة في حفظ حياة ابيهِ واخوتهِ من الموت بالجوع. وفي سنة ١٧٠٦ ق م انحدر ابوهُ يعقوب مع اولادهِ الاثني عشر الى مصر وسكنوا هناك وتكاثروا حتى صاروا امة عظيمة. ومات يعقوب سنة ١٦٨٩ ق م ويوسف سنة ١٦٣٥

ولما توفي فرعون ملك مصر الذي كان يحب يوسف خلفهُ فراعنة آخرون لم يكونوا يعرفون الاسرائيليين فاساءوا اليهم وظلموهم وساموهم اعمالاً شاقة جدًا وعاملوهم كالعبيد. وكان من جملة القساوة البربرية التي اجراها احد الفراعنة المذكورين مع العبرانيين اصدارهُ امرًا بان كل ذكرٍ يولد لهم يُلقَ حالاً في نهر النيل. وقصد في ذلك ان يقطع نسلهم لئلاَّ يكثروا وتقوى شوكتهم على المصريين ويغتصبوا منهم البلاد

الباب الثاني

في خروج بني اسرائيل من مصر تحت رياسة موسى واستيلائهم على ارض كنعان

وما زال بنو اسرائيل يكابدون المشقات والمتاعب حتى ولد موسى فجعلته امهُ في تابوت والقتهُ بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت اختهُ من بعيد لتنظر ما يكون من امرهِ وبعد ذلك بقليلٍ حدث ان ابنة فرعون جاءت الى النهر مع جواريها لتغتسل فرأتهُ واستخرجتهُ من التابوت ورقّت لهُ وقالت هذا من العبرانيين فمن لنا بمن ترضعهُ فقالت لها اختهُ انا اذهب وادعو لكِ مرضعةً من العبرانيات فقالت اذهبي فذهبت الفتاة وجاءت بامهِ فسلمتها ابنة فرعون الصبي فاخذتهُ وارضعتهُ ولما ترعرع اتت بهِ اليها واسلمتهُ لها ونشأ عندها ودعت اسمهُ موسى وعلمتهُ كل علوم المصريين وفنونهم التي كانوا قد امتازوا بها على باقي اهل العالم فابقتها اتقانًا جيدًا . ولكنهُ مع ما كان عليهِ في بيت فرعون من الرفاهية والصولة لم ينسَ مشقات العبرانيين وتنهداتهم متذكرًا انهم اخوتهُ فكان يشفق عليهم ويود خلاصهم

ثم اعطى الله موسى وهرون اخاهُ قوّةً من السماء على أن ياتيا فرعون ويطلبا اليهِ اطلاق العبرانيين من عبودية المصريين وجور فراعنتهم ويصنعا العجائب امامهُ ليعلم بان هذا الطلب هو من الله . فخرجا اليهِ وصنعا عجائب كثيرة وضربا المصريين بالضربات العشر المعلومة واحدة بعد اخرى فسلم فرعون اخيرًا باطلاق سبيلهم فساروا حتى انتهوا الى ساحل بحر الاحمر المعروف ببحر السويس الفاصل بين مصر وبلاد العرب ولكنهُ بعد خروجهم بقليل ندم على ما فعل فجمع فرسانهُ وجنودهُ وتبعهم ليعيدهم للذل والعبودية فامر الله موسى ان يضرب البحر بعصاهُ فضربهُ فانفلق قسمين فعبروا على

اليابسة حتى انتهوا الى الشط الثاني ولما ادركهم فرعون اتّبعهم وحاول ان يعبر وراءهم ولما صار في وسط البحر امر الله المياه ان ترجع كما كانت فانطبقت على فرعون فغرق في البحر هو وكل جيشهِ وفرسانهِ ومركباتهِ

وكان عدد العبرانيين الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى نحو مليونين ونصف . وكان خروجهم منها في زمن منفطا الثاني احد فراعنة الدولة التاسعة عشرة بعد ان اقاموا فيها مدة ٢١٥ سنة وذلك من نزول يعقوب الى وقت خروجهم . وكان عمر موسى وقتئذٍ ثمانين سنة وكان على جانب عظيم من الحلم والتواضع والحكمة

وان قال قائل كيف جزمت بان الاسرائيليين اقاموا في مصر ٢١٥ سنة وموسى يقول ان اقامتهم كانت ٤٣٠ سنة ويوافقهُ على ذلك بولس بقولهِ ان الناموس الذي صار بعد ٤٣٠ سنة لا ينسخ عهدًا قد سبق فتمكن من الله فنقول ان المراد في هذا القول اعتبارًا من يوم تغرب ابرهيم في ارض كنعان وليس المقصود فيهِ التغرب في مصر وواقعة الحال تؤيد الخبر وهاك بيان ذلك

سنة	
٢٥	من وصول ابرهيم الى بلاد كنعان الى ولادة ابنهِ اسحق
٦٠	من ولادة اسحق الى ولادة ابنهِ يعقوب
١٣٠	من ولادة يعقوب الى نزولهِ الى مصر
٢١٥	مدة اقامة الاسرائيليين في مصر كما تقدم القول
٤٣٠	

وان قال آخر ان المدّة الموحى بها من الله الى ابرهيم بالوعد هي اقصر من المدّة المحكي عنها من موسى وبولس بثلاثين سنة فالجواب ان كلام الوحي لا يشير الى ذات ابرهيم بل الى نسلهِ حيث يقول ان نسلك سيكون غريبًا في ارض ليست لهم اربعماية سنة واما موسى وبولس فيشملان غربة ابرهيم ايضًا اذ يحسبان انهُ كان غريبًا مثل نسلهِ فاذ قد تقرر ذلك وجب علينا ان نحذف من الحساب

المتقدم ذكرهُ الخمس والعشرين سنة المنسوبة الى غربة ابرهيم لحين ولادة اسحق فيكون الباقي ٤٠٥ سنين ولاجل التخلص من فرق الخمس سنين نقول انهُ كان من عادة اليهود في تلك الايام ان تفطم اطفالها في نهاية الوقت الذي انتقلوا بهِ من سن الطفولية الى سن الصبا اعني بعد مرور خمسة اعوام من تاريخ الولادة فنرى اذًا مما تقدم ان المدَّة التي حددها الله لابرهيم يبتدئُ تاريخها من ذلك اليوم الذي كان محفوظًا لاحتفال فطام الولد وعلى هذه الكيفية تكون الموافقة تامَّة

وكان قصد الله في اخراج العبرانيين من مصر ان يذهبوا الى ارض كنعان التي وعد ان يملكهم اياها على لسان ابرهيم . وكان طريقهم على اطراف بلاد العرب التي هي شرقي بلاد مصر والبحر الاحمر . ولكي لا يضلوا عن الطريق اقام لهم عمودًا من سحاب ليرشدهم في مسيرهم نهارًا وعمود نارٍ يضيء لهم ليلاً في رحلاتهم . واذ كانت تلك البراري المقفرة بلا نبات ولا ماء كان الله يقيتهم بالمنّ عوض الخبز وبالسلوى عوض اللحم ويأتيهم بالماء من وسط الصخرة وقد اعانهم ونصرهم في محاربتهم لاهل عمالق

ولكنهم مع كل هذه المراحم لم يعتبروا احسانات الله فعصوا وتمرَّدوا عليهِ بانواع مختلفة وكثيرًا ما تركوا عبادتهُ وعبدوا الاصنام . وبينما كان الله معلنًا ذاتهُ لموسى على جبل سينا الزم الشعب هرون ان يصنع لهم عجلاً من ذهب ليعبدوهُ عوضًا عن الخالق الذي اخرجهم وانقذهم من عبودية المصريين بذراعٍ رفيعة وقوَّة عظيمة

ولسبب مخالفتهم وتعدياتهم الكثيرة غضب الله عليهم وانتقم منهم اشد انتقام فمات بعضهم بالوبأ وجعل الارض تفتح فاها وتبتلع بعضهم واضلَّ الاخرين عن الطريق اربعين سنة فتاهوا في برية بلاد العرب مع ان المسافة بين مصر وارض كنعان لا تبعد اكثر من مايتين وخمسين ميلاً وهي عبارة عن اثنتي عشرة مرحلة فقط وزد على ذلك انهُ لم يدخل الى ارض كنعان احد من ذلك

الجيل الذين خرجوا من مصر الاَّ يشوع بن نون وكالب بن يفنَّة والباقون ماتوا في البرية ولم يدخلها غير اولادهم واولاد اولادهم حتى ان موسى ايضًا لم يسمح لهُ بالدخول بل اراهُ تلك الارض الواسعة من راس الفسجة في جبل نبو وهناك مات ولم يُعرَف قبرهُ الى هذا اليوم

ثم اقام الله للاسرائيليين بعد موسى يشوع بن نون فقادهم الى ارض الميعاد واخضع لهم اهل تلك البلاد وقتل ملوكها واحرق مدنها بالنار وقسم املاكها وارضها على اسباط اسرائيل الاثني عشر. وبعد موت يشوع ارتدَّ بنو اسرائيل عن الله وعبدوا الالهة الغريبة فسلط الله عليهم الفلسطينيين واسلمهم بيدهم فكانوا يضايقونهم ويذلونهم ويسبونهم وكانوا عند ما يلتجئون الى الله ويصرخون اليهِ في وقت الضيق والشدَّة يشفق عليهم ويقيم لهم قوَّادًا من ذوي الاهلية واللياقة في السياسة والحروب وكان يزينهم بشجاعةٍ وحكمةٍ لكي ينقذهم من مصائبهم وشدائدهم ويكونوا ولاة امورهم. وتلقب هولاء القواد بالقضاة اذ كانوا يقضون ويحكمون بين الشعب وذلك في المدة المتوسطة بين موت يشوع المذكور وقيام شاول الملك الاول وكانت سلطة هولاء القضاة اقل من سلطة الملك فلم يكن لهم سلطان ان ينظموا احكامًا او قوانين جديدة بل كانوا يحامون عن الشرائع ويحافظون على حقوقهم وينظرون لكليات مصالحهم وينتقمون من المجرمين ولاسيما الذين يتوغلون في العبادة الوثنية. وكان عدد هولاء القضاة اربعة عشر واستمرَّ حكمهم بحسب راي الاكثرين نحو ثلث مئة وعشر سنين وذلك من بعد موت يشوع بعشرين سنة الى تتويج شاول الملك الاول والجدول الآتي يبيّن اسماءهم وتاريخ حكمهم

جدول اسماء القضاة وتاريخ حكمهم

٠١	عثنيل بن قناز اخو كالب	سنة ١٢٩٤ ق م
٠٢	اهود بن جيرا البنياميني	١٢٣٦
٠٣	شمجر بن عناة	
٠٤	باراق بن ابينوعم ومعهُ دبورة النبية	١٢٩٦
٠٥	جدعون بن يواش ويقال لهُ يرُبّعل	١٢٤٩
٠٦	تولع بن فواة بن دودو	١٢٠٦
٠٧	يائير الجلعادي	١١٨٣
٠٨	يفتاح الجلعادي	١١٤٣
٠٩	ابصان من بيت لحم	١١٣٧
١٠	ايلون الزبلوني	١١٣٠
١١	عبدون بن هِلّيل الفرعتوني	١١٢٠
١٢	شمشون بن منوح	١١٤٠
١٣	عالي الكاهن	١١٨٣
١٤	صموئيل النبي	١١٤١

الباب الثالث

في ذكر جدعون وشمشون من قضاة الاسرائيليين

وحيث كان بعض اولئك القضاة ذوي شجاعةٍ وبأسٍ رأينا ان نذكر بعض افعالهم تذكارًا لهم فنقول انهُ في مدة قضاء جدعون اتى المديانيون بجيوشٍ عظيمة وجموعٍ كثيرة وضايقوا الاسرائيليين وحاصروهم مدة سبع سنين

واذلوهم كثيرًا فامر الله جدعون المذكور ان ينزل اليهم بثلاثماية رجل فنزل اليهم بهذا العدد وكان كل واحد منهم حاملاً بيدهِ الواحدة جرة فارغة داخلها مصباحٌ وبالاخرى بوقًا فلما اشرفوا عليهم وجدوهم نيامًا وهم في غاية الاطمئنان غير مبالين بشيء فامر جدعون رجالهُ ان يكسروا جرارهم ويشهروا مصابيحهم بيسارهم ويبوقوا بابواقهم ففعلوا كما امرهم فتناولوا المصابيح باليسار وبوقوا بالابواق ونادوا باعلى اصواتهم للرب ولجدعون فانتبه المديانيون من رقادهم بغتةً وهم يظنون ان عسكر الاسرائيليين قد هجم عليهم ودهمهم فخافوا واضطربوا ونهضوا في الحال لا يعلمون ماذا يفعلون وكانوا يزاحمون بعضهم بعضًا على الهزيمة والفرار ويقتل كلٌّ منهم صاحبهُ وهو لا يعرفهُ واشتدَّت بينهم المعركة طول ذلك الليل حتى قتل بعضهم من البعض عددًا كثيرًا وولى من بقي منهم الى بلادهِ غير مصدقين بنجاتهم

ومن اعظم قضاة اسرائيل واشهرهم شمشون الجبار وكان من اشد جبابرة العالم واقدرهم لم ياتِ الزمان بمثلهِ . ولم يفعل احدٌ كفعلهِ ومما يستحق العجب ان سبب قوتهِ كانت ناشئة من شعر راسهِ لانهُ كان اذا اطلق شعرهُ تضاهي قوتهُ قوة مئة رجل واذا جلقهُ تضعف ويصير كباقي الناس . ومن افعالهِ انهُ التقى يومًا باسد كاسر فقبض عليهِ وشقهُ نصفين كما يشق الرجل الجدي وليس في يدهِ شيء . والتقى يومًا بثلاثين رجلاً فقتلهم واخذ ثيابهم وامتعتهم . وفي ايامهِ تغلبت الفلسطينيون على الاسرائيليين وضربوا بهم فغضب شمشون من ذلك ونهض لمقاومتهم والانتقام منهم . فامسك مرةً ثلثماية ابن آوى واخذ مشاعل وجعل ذنبًا الى ذنبٍ ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط ثم اضرم المشاعل نارًا واطلقها بين زروع الفلسطينيين فاحرق الاكداس والزروع وكروم الزيتون . وقتل مرةً منهم الف رجل بفك حمار من بعد ما قطع الوثق التي كان مقيدًا بها وهي حبلان جديدان . ونزل يومًا الى غزة فأوصد عليهِ الفلسطينيون ابواب المدينة لكي يقتلوهُ عند الصباح ولما علم بذلك قام عند نصف الليل ونزع

مصراعي باب المدينة مع القائمتين والعارضة وحملها على كتفيهِ وصعد بها الى راس تلة بعيدة

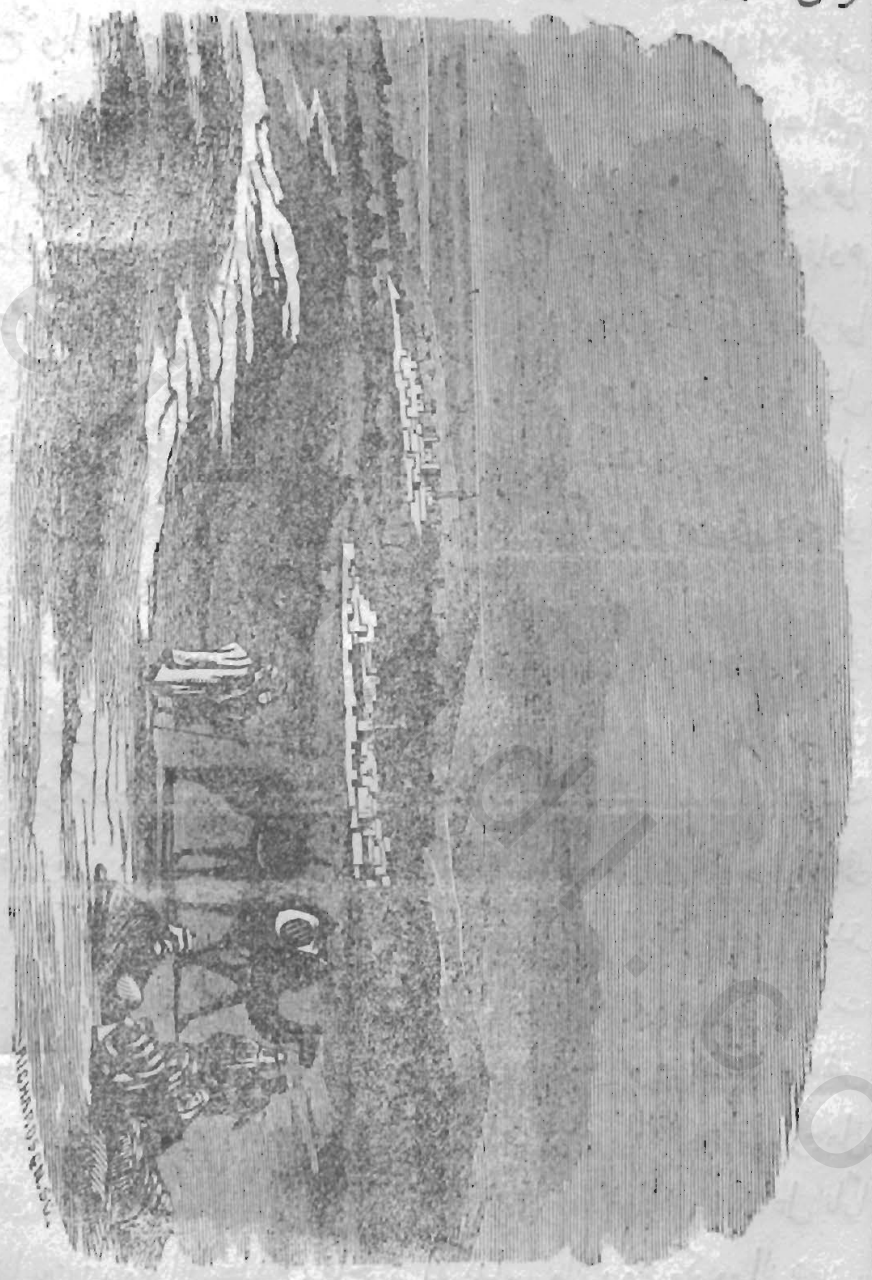

وكان شمشون مع شدَّة بغضهِ للفلسطينيين ومواظبتهِ على اضرارهم قد احب امراة منهم اسمها دليلة فكانت تظهر لهُ المحبة والوداد وهي في الباطن عاملة على اهلاكهِ لان الفلسطينيين كانوا قد وعدوها بمبالغ وافرة لتخدعهُ وتعلم منهُ بماذا

تقوم قوتهُ العظيمة فاخذت دليلة تملقهُ بانواع الخداع والحيل لكي يقر لها بهذا الامر فخدعها شمشون وقال لها انهُ اذا رُبط بسبعة اوتار طرية تذهب قوتهُ فجرَّبت ذلك وربطتهُ بسبعة اوتار ثم قالت لهُ الفلسطينيون عليك يا شمشون وكانت فرسانهم كامنةً عندها في البيت فقطع الاوتار كما يقطع فتيل المشاقة اذا شم النار . ثم الحت عليهِ ثانيةً بتشديد ان يعلمها الصحيح فقال اذا اوثقوني بحبالٍ جديدة لم تستعمل اضعف واصير كواحدٍ من الناس . فربطتهُ بحبالٍ جديدة ونادتهُ كالاول فقطع الحبال عن ذراعيهِ كما يقطع الغلام الخيط فاغتاظت دليلة اخيرًا وكررت عليهِ السوال واذ لم يمكنهُ مخالفتها اخبرها بواقعة الحال ولما انكشف لها الامر وعرفت باطن الطوية وان قوتهُ قائمة باطلاق شعرهِ وعدم رفع موسى على راسهِ لانهُ كان نذيرًا لله من بطن امهِ ارسلت فدعت اليها وجوه آل فلسطين واوقفتهم على الحقيقة واخذت منهم الفضة التي وعدوها بها ثم جعلتهم في كمين وانامت شمشون على ركبتها ودعت رجلاً حلق لهُ شعرهُ ففارقتهُ قوتهُ وبهذه الوسيلة اسلمتهُ لاعدائهِ فاخذهُ الفلسطينيون واوثقوهُ بسلاسل من نحاس وقلعوا عينيهِ وسجنوهُ وجعلوهُ يطحن الشعير والحنطة . وابتدا شعر راسهِ ينبت بعد ان حلق فعادت اليهِ قوتهُ كما كانت وصار من اشد الناس . واتفق في بعض الايام بينما كان الفلسطينيون مجتمعين يوم عيد الههم داجون وهم في غاية الفرح والحبور على اسر شمشون انهم دعوا شمشون من السجن ليلعب امامهم ويبسطهم فجاء الى القاعة التي كانوا مجتمعين فيها وكان البيت مملوًّا من الرجال والنساء وعلى السطح نحو ثلاثة الاف نسمة يتفرجون على لعبهِ وكان في وسط القاعة المذكورة عمودان كبيران كان البيت قائمًا عليهما فلما فرغ شمشون من لعبهِ قبض على العمودين المذكورين الواحد بيمينهِ والآخر بيسارهِ وانحنى عليهما بقوتهِ من بعد ما استعان بالله فسقط البيت على من فيهِ وماتوا جميعًا فكان الذين اماتهم بموتهِ اكثر من الذين اماتهم في حياتهِ

الباب الرابع

في ذكر شاول وداود وسليمان

اذ لا يسعنا في هذا المختصر ان نستوفي كل اخبار ملوك اسرائيل ووقائعهم وحروبهم رأينا ان نذكر اعظمهم واشهرهم على وجه الاختصار فنقول . لما نفر شعب اليهود من احكام القضاة اخذوا يسعون في اقامة ملك عليهم ليسوسهم ويدبر امورهم فاجتمع جمهورهم وقصدوا النبي صموئيل وكان يومئذٍ قاضيًا ورئيسًا عليهم والتمسوا منهُ ان يختار لهم ملكًا من اهل الدراية والاستقامة فاشار عليهم ان يكفوا عن هذا الطلب واظهر لهم المظالم والمتاعب التي كانت الملوك تجريها في تلك الايام المظلمة . واذ كانوا لا يسمعون لهُ ولم يقدر على ردهم انتخب لهم شاول بن قيس ومسحهُ ملكًا عليهم سنة ١٠٩٥ ق م وهو اول ملوك اسرائيل . وكان جميل الصورة طويل القامة فحكم نحو اربعين سنة وكان في اول امرهِ سالكًا طريق الحكمة والاستقامة ممتازًا بمكارم الاخلاق والتقوى لكنهُ اخيرًا تجبر وتكبّر اذ اتخذ لنفسهِ وظيفة الكهنوت المحصورة في الكهنة فقط وعصى الله باستبقائهِ اجاج ملك عمالق واعفائهِ عن خيار الغنم والبقر

كاهن عبراني يمسح ملكًا

خلافًا لامر الله الذي كان قضى بتحريمها وقتلها

وكان في ايامهِ بين الاسرائيليين وباقي الشعوب المجاورة لهم حروبٌ متصلة

واجتمع الفلسطينيون يوماً لقتال الاسرائيليين فالتقاهم شاول بجموع اسرائيل . وكان في معسكر الفلسطينيين شخصٌ من الجبابرة الطغاة اسمهُ جليات طولهُ ست اذرع وكان متدرعاً بالحديد ومسلحاً بالاسلحة المانعة ووزن سنان رمحهِ احدى عشرة اقة . وكان ينزل كل يوم الى ساحة الميدان ويتهدد الاسرائيليين بالكلام ويستدعيهم للمبارزة والقتال فيتأخرون عنهُ ويخافونهُ كما تخاف الشاة من الذئب ولم يزل على ذلك حتى اقبل على اسرائيل داود بن يسى من سبط يهوذا من مدينة بيت لحم وكان شاباً صغير السن يرعى الغنم لابيهِ وكان مع صغر سنهِ شجاعاً جسوراً فلما سمع صوت الفلسطيني استأذن من الملك شاول لمبارزتهِ فاذن لهُ بذلك فاسرع ونزل الى ميدان الحرب بثيابهِ المعتادة ولم يكن مع داود سلاحٌ سوى مقلاعٍ وخمسة احجار من زلط في كنفهِ فلما رآهُ ذلك الجبار صاح عليهِ صيحة عظيمة واخذ يتهددهُ ويشتمهُ فلم يكترث داود بكلامهِ بل تقدم لاستقبالهِ واخذ حجراً من كنفهِ ووضعهُ في المقلاع وقال انت تاتي اليَّ بالسيف والرمح وانا آتي اليك باسم رب الجنود ثم برم المقلاع وقذفهُ بالحجر فارتز في جبهتهِ وسقط على وجههِ الى الارض فبادر داود اليهِ واستلَّ سيفهُ وقطع بهِ راسهُ فلما رأى الفلسطينيون ان جبارهم وعميدهم قد مات انهزموا وتفرقوا في اقطار التلا فتبعهم الاسرائيليون وقتلوا منهم عدداً كثيراً ثم رجع داود من الحرب وبيدهِ راس جليات فاكتسب بذلك فخراً ومدحاً من جميع الناس وزوجهُ شاول بابنتهِ وجعلهُ حامل سلاحهِ ثم حسدهُ وابتلى منهُ بالغيرة وصمم على قتلهِ فهرب داود من امام وجههِ ولحق باهل فلسطين واقام عندهم اياماً ثم التجأ الى الجبال والكهوف وبقي على هذه الحال نحو ٣٤ سنة حتى قُتل شاول مع ابنهِ يوناثان في حروبهِ الاخيرة مع الفلسطينيين

وبعد موت شاول اختار شعب يهوذا داود المذكور ملكاً عليهم وكان ذلك سنة ١٠٥٥ ق م فساسهم سبع سنين وستة اشهر ثم انضم اليهِ جميع اسباط اسرائيل فتولى عليهم نحو ثلاثٍ وثلثين سنة وقاتل جميع الامم المجاورة لهُ وظفر

بهم واذلّهم وضرب عليهم الجزية واعتنى باصلاح المملكة فهذبها وشيدها حتى بلغت الى درجة سامية من العظمة والفخار والشوكة والاقتدار وجعل قصبة مملكتهِ مدينة اورشليم . وكان داود على جانب عظيم من الحكمة والتقوى والصلاح مستقيمًا مع الله فاحبهُ الله ووعدهُ انهُ يعطي الملك لنسلهِ من بعدهِ وان المسيح ياتي من ذريتهِ . وكان شاعرًا فصيحًا وقد خلف ذكرًا مؤبدًا بمشائدهِ الزبورية المطربة التي لايزال اكثر الناس يستعملونها الى يومنا هذا في التسبيحات الروحية ويشترك في الفاظها الرقيقة العذبة كل قلبٍ نقي غير انهُ كان وقع في زلةٍ فظيعة بقتلهِ اوريا الحثي لاجل التزوج بامرأتهِ فاورثهُ ذلك الحزن الشديد وتاب الى الله وقُبل

ثم قام بالملك من بعد داود في بني اسرائيل ابنهُ سليمان وكان ملكًا مهيبًا حكيمًا ذا شوكة وثروة وفراسة وهو الذي بنى الهيكل المشهور في مدينة اورشليم لعبادة الله عز وجلّ وكان قد مضى على اليهود نحو اربعماية وثمانين سنة منذ خروجهم من مصر ولم يكن لهم مسجد فاعتنى ببنائهِ وانفق عليهِ اموالاً جزيلة وكانت اخشابهُ من شجر الارز والسرو الذي استجلبهُ من لبنان بواسطة حيرام ملك صور وزين الهيكل من داخلهِ بانواع النقوش والتماثيل الملبسة بالذهب بما لا يستطيع لسان القلم ان يصفهُ او يحصي قيمة نفقتهِ واستمر في بنائهِ نحو سبع سنين وكان الفراغ منهُ بعد الخليقة بثلاثة الاف سنة وقبل المسيح بالف سنة وحُسب هذا البناء من عجائب الدنيا

وكان سليمان شاعرًا مثل ابيهِ ولهُ مؤلفات في اللغة الادبيّة وقضى كل مدّة ملكهِ في راحة تامّة مع الملوك جيرانهِ وكان محبوبًا ومكرمًا من الجميع ولكنهُ سقط بالعبادة الوثنية واتخذ لنفسهِ نساء كثيرة ما بين حرة وسرية وتزوج بنت فرعون ملك مصر وبنى لها على ما قيل القصر الذي في بعلبك ومدينة تدمر في البرية ثم ندم وتاب ورجع الى الله

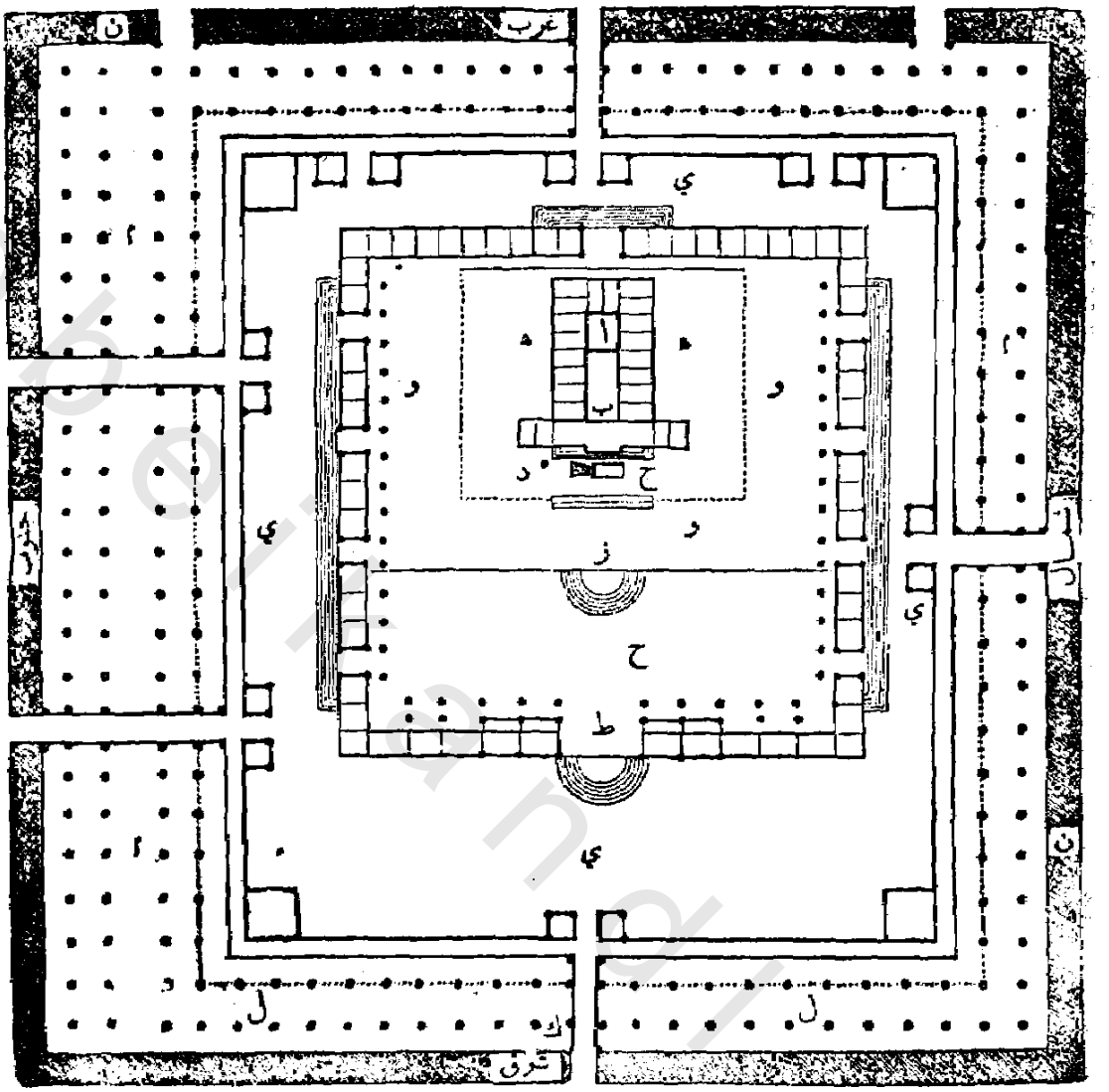

معنى الاشارات في هذه الصورة

ا قدس الاقداس	ح دار النساء
ه دار الكهنة	ل رواق سليمان
ب القدس	ط الباب الجميل
ج مذبح المحرقة	ي دار الامم
د مرحضة النحاس	ك الباب الشرقي
و دار اسرائيل	م الرواق السلطاني
ز باب نيكانور	ن الحائط الخارجي

ومما ذكر من امر فراستهِ انهُ بينما هو ذات يوم في مجلسهِ دخل عليهِ امرأتان تتنازعان على طفلٍ صغير تدَّعي كل امراة منهما انهُ ولدها واذ كان الامر ملتبسًا امر سليمان باحضار سيف وان يُقطع الطفل الى قطعتين ويُعطى لكلٍّ منهما النصف لاجل فض هذا المشكل فلما رأت ام الطفل الحقيقية بريق

ارز لبنان

السيف فوق راس ابنها تحركت عواطف قلبها بالشفقة والرافة وصرخت قائلةً

لا تفعل يا سيدي ضررًا بالولد بل اعطهِ الى هذه المراة الشريرة ودعهُ يحيا اما المراة الثانية فقالت بدون شفقة انني لا اريد الا حقي فليقطع الولد وانا آخذ نصفهُ فعلم حينئذٍ سليمان من تصرفها الام الحقيقية وامر باعطائها ابنها

ولوصل سليمان بلاد اليهودية الى درجةٍ عليا من المجد فكانت ممتدة الى حدود مصر وقسم من البحر الاحمر جنوبًا وغربًا والى نهر الفرات شمالاً وشرقًا . وكانت اليهودية يومئذٍ منقسمة الى قسمين . الاول اليهودية التي استولى عليها الاسرائيليون في ايام يشوع وقسمها بينهم كما هو مذكور في سفرهِ والثاني اليهودية المفتتحة المتضمنة مالك الشام وتدمر وبلاد الادوميين والعمونيين والموابيين وغير قبائل عربية للجنوب والشرق . ولاجل تسهيل ادارة الاحكام قسم سليمان هذه البلدان الى اثني عشرة ولاية واقام عليها اثني عشر واليًا من رجال الامناء . وكان لهُ ايضًا سُفُن بحرية كانت تسافر مع سفن الصوريين الى شرقي افريقيا والبعض يقولون انهم وصلوا الى بلاد الاندلس

وتوفي سليمان لاربعين سنة من ملكهِ ودفن بجانب ابيهِ داود فهولاء هم الملوك الثلاثة الذين استولوا على كل اسباط اسرائيل

الباب الخامس

في انقسام مملكة اليهود والاسر البابلي

وبعد موت سليمان تولى ابنهُ رحبعام سنة ٩٧٥ ق م وحسب انباء الله السابق ما لبث في المملكة حتى انقسمت الى قسمين فانحاز الى يوربعام بن ناباط عشرة اسباط اسرائيل واقاموهُ عليهم ملكًا واتخذوا مدينة السامرة كرسيًا لملكهم

وبقي رحبعام بن سليمان ملكًا على سبطي يهوذا وبنيامين في مدينة اورشليم وما يليها . وكان السبب في ذلك اتباعهُ مشورة اصدقائهِ الاحداث ورفضهُ راي الشيوخ في مسالمة الشعب ومعاملتهم بالرقة واللين . وكانت اكثر ايامهِ حروبًا مع يربعام وبني اسرائيل . وفي ايامهِ زحف شيشق ملك مصر الى اورشليم ونهب الهيكل

اما عدد الملوك الذين تولوا على اسرائيل فكانوا تسعة عشر ملكًا وكان اكثرهم يعبدون الاصنام واستمر ملكهم مدة مئتين واربعة وخمسين سنة الى ان زحف على المملكة شلمناصر ملك اشور سنة ٧٢١ ق م وحاصر السامرة واسر الاسباط العشرة مع ملكهم ونقلهم الى بلادهِ فكانوا مستعبدين في جوف اسيا وهكذا انقرضت مملكة الاسباط العشرة وتلاشى امرهم ولم يسمع لهم خبر ولا ذكر بعد ذلك . ثم اتى ملك اشور بقومٍ من بلادهِ من قبيلة الكوفيين واسكنهم مدن السامرة عوضًا عن الاسرائيليين ومن هولاء نشأت طائفة السَمَرة

واما ملوك يهوذا فكان عددهم تسعة عشر ملكًا ما عدا عَتَلْيا ام أَخَزيا كما ترى بيان ذلك في الجدول الآتي وهم من ذرية داود وكان بعضهم من اهل التقوى والصلاح كحزقيا ويوشيا الذي قتلهُ نخو ملك مصر . وكانت حروبهم متصلة مع مصر واشور ومملكة اسرائيل حتى التزم الملك احاز مرةً ان يستدعي تغلت فلاسر ملك اشور لمساعدتهِ على ملكي الشام واسرائيل المتحدين عليهِ فاتى وخرب دمشق ثم ضرب الجزية على ملكي اسرائيل ويهوذا وبقي ذلك الى ان قام حزقيا فاعتق اليهودية من نير الاشوريين وتخلص من غزو سنحاريب على اورشليم كما ذكر في تاريخ اشور . وفي ايام الملك يهوياقيم احد ملوكهم الذي كان قد دفع الجزية الى فرعون ملك مصر زحف نبوخذنصّر ملك بابل الى اورشليم سنة ٦٠٦ ق . م وسبى جانبًا من الشعب وهذا هو السبي الاول ثم بعد ذلك بثمان سنين زحف ثانيةً في ايام يهوياكين بن يهوياقيم

المذكور واسرهُ مع رؤسائهِ وقسمٍ من الشعب ونهب الهيكل وكل ما فيهِ من التحف النفيسة والاواني الثمينة وهذا هو السبي الثاني ثم بعد ذلك بعشر سنين زحف نبوخذنصر ثالثةً في ايام الملك صدقيا كما مرَّ وحاصر اورشليم فافتتحها واسرهُ الى بابل بعد ان اذلَّهُ وقلع عينيهِ واحرق المدينة والهيكل بالنار وسبى كل شعب يهوذا ما عدا المساكين والفقراء وهذا هو السبي الثالث والاخير وهكذا انقرض مجد هذه المملكة سنة ٥٨٨ ق.م وكانت مدتها ٣٨٧ سنة بعد انفصال مملكة اسرائيل عنها

ولما استولى كورش ملك فارس على بابل اذن لليهود في اواخر حكمهِ ان يرجعوا الى بلادهم بعد ان اخذ عليهم عهودًا انهم لا يخونون بل يكونون تحت الطاعة والانقياد خاضعين للاوامر الفارسية فرجعوا وبنوا الهيكل ومارسوا طقوس عبادتهم وكانوا تحت سلطة ملوك الفرس الى زمن اسكندر الكبير سنة ٣٣٠ ق م وذكر يوسيفوس المؤرخ ان اسكندر الكبير لما تقدَّم بجيوشهِ نحو القدس ليفتحها انتقامًا لامدادهم اهل صور بالذخائر والعلوفات عند ما كان محاصرًا المدينة ظهر لهُ ملاك في الطريق وتهددهُ على ما كان قصدَهُ من خراب اورشليم فخاف اسكندر وعدل عمَّا كان صمَّم عليهِ وعند وصولهِ الى المدينة دخلها كرائر وسجد لاله اسرائيل في الهيكل واتحف الكهنة بهدايا فاخرة ثم تحول عنها قاصدًا داريوس ملك الفرس

ملوك يهوذا			ملوك اسرائيل		
اسم الملك	تاريخ حكمهِ ق م	مدة حكمهِ	اسم الملك	تاريخ حكمهِ ق م	مدة حكمهِ
رحبعام	٩٧٥	١٧	يربعام	٩٧٥	٢١ سنة
ابيام	٩٥٨	٣	ناداب	٩٥٤	٢
آسا	٩٥٥	٤١	بعشا	٩٥٣	٢٤
يهوشافاط	٩١٤	٢٥	ايله	٩٣٠	٢
يهورام	٨٩٤	٨	زمري	٩٢٩	١
عَثَلْيا ام أَخَزْيا	٨٨٥	١	عمري (بنى مدينة السامرة	٩٢٩	١٢
أَخَزْيا	٨٨٤	٦	اخاب	٩١٨	٢٢
يواش	٨٧٨	٤٠	اخزيا	٨٩٨	٢
امصيا	٨٣٨	٢٩	يهورام	٨٩٦	١٢
عزريا او عزيا	٨١٠	٥٢	ياهو بن نمشي	٨٨٤	٢٨
يوثام	٧٥٨	١٦	يهوآحاز	٨٥٦	١٧
آحاز	٧٤١	١٦	يواش	٨٤٠	١٦
حزقيا	٧٢٦	٢٩	يربعام الثاني	٨٢٥	٤١
منسى	٦٩٧	٥٥	فترة بدون ملك	٧٨٤	١٢
آمون	٦٤٢	٢	زكريا	٧٧٢	٦ اشهر
يوشيا	٦٤٠	٣١	شلّوم	٧٧٢	١ شهر
يهوآحاز	٦٠٩	٣ اشهر	منحيم بن جادي	٧٧١	١٠ سنين
يهوياقيم	٦٠٩	١١ سنة	فقحيا	٧٦٠	٢
يهوياكين	٥٩٨	٣ اشهر	فقح	٧٥٨	٢٠
صدقيا	٥٩٨	١١ سنة	هوشع	٧٢٩	٩

الباب السادس

في تغلب ملوك مصر وسورية على اليهودية واستيلاء الرومانيين عليها الى حين خراب اورشليم

وكان المصريون قد تغلبوا على اليهودية بعد موت اسكندر واستمرت شعوب اليهود تحت تسلطهم مدة طويلة ثم الى بعدهم السوريون تحت راية انتيوخوس الرابع احد ملوك الدولة السلوقدية فافتتحوا البلاد واستخلصوها واسروا الاهالي واذلوا امة اليهود وجاروا عليها جورًا عنيفًا وقتلوا من الشعب خلقًا كثيرًا فهرب من بقي منهم الى الجبال والبراري واقاموا فيها . ثم رحل انتيوخوس راجعًا بجيوشهِ الى بلادهِ وكان قد اقام نائبًا لهُ على اورشليم رجلاً من قوادهِ يقال لهُ فيلكس وامرهُ ان يلزم اليهود ويجبرهم على اكل لحم الخنزير وان يسجدوا لاصنامهِ ويمتنعوا عن الختان وعن حفظ يوم السبت وان يقتل كل من خالف امرهُ ففعل فيلكس كما امرهُ سيدهُ ويقال انهُ قتل خلقًا كثيرًا من اليهود ممن كانوا لا يمتثلون لهذه الاوامر . وفي سنة ١٦٦ ق م قام على اليهود قائدٌ جبارٌ يدعى متثيا بن يوحانان الكاهن المكابي وهو اول من قام من المكابيين وانتصر لليهود وتولى امرهم ثم خلفهُ ابنهُ يهوذا فطرد السوريين من البلاد واستبدَّ بالمملكة ولما بلغ هذا الخبر مسامع انتيوخوس المذكور ملك سورية شقَّ عليهِ ذلك واقسم انهُ لا بد من ان يمحو آثار اليهود عن وجه الارض ويطفئ اخبارهم فتجهز من يومهِ في جيشٍ عظيم وسار قاصدًا البلاد اليهودية فبينما هو في اثناء الطريق وقع من مركبتهِ الى الارض فمات وارتدت عساكرهُ راجعةً الى بلادها . وكان القائد يهوذا بن متثيا المذكور قد توفي

قتيلاً في معركة حدثت بينهُ وبين نيكيروس احد قواد الرومانيين وبموتهِ استولت ذريتهُ على اليهودية وصاروا ملوكًا غير ان الفتن والحركات كانت لم تزل قائمة في اطراف البلاد

وكان الرومانيون قد ارسلوا جيشًا لافتتاح بلاد القدس تحت رياسة القائد بومبي فحاصرها وفتحها بنحو اربعين سنة ق م ثم سلم زمامها الى رجلٍ من بلاد آدوم يسمى انتيباتر وكان من عظماء اليهود واشرافهم ذا شجاعة وبأس وجعلهُ نائبًا للدولة الرومانية على المملكة اليهودية . وسنة ٤٧ ق م صدرت الاوامر من مجلس رومية بعزل انتيباتر المذكور عن ولاية احكام بلاد اليهودية واقام المجلس مكانهُ ابنهُ هيرودس الكبير. وهيرودس هذا هو الذي امر بقتل الاطفال في بيت لحم لكي يميت سيدنا يسوع المسيح لهُ المجد الذي جاء في ملء الزمان مولودًا من مريم العذراء في مغارة بيت لحم وكان قد أُنبئ بمجيئهِ ملكًا لليهود.

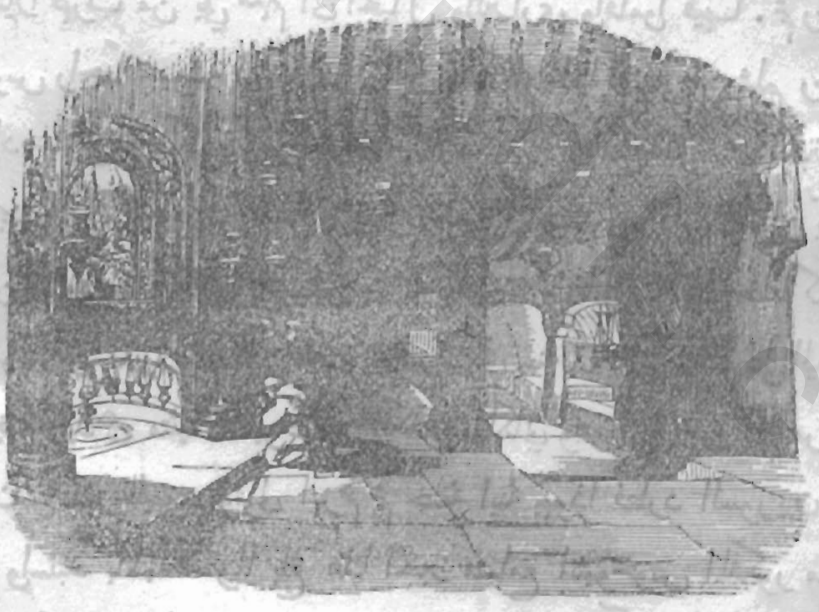

مغارة الميلاد في بيت لحم

وكان هيرودس هذا ملكًا مقبلاً مهيبًا مظفرًا ذا سطوة وشوكة وكان مع هذه الاوصاف خبيثًا عسوفًا متمردًا حتى انهُ قتل في مدة ولايتهِ من الخلق ما لا يحصيهِ الا الله سبحانهُ وتعالى وقد قتل ايضًا زوجتهُ وثلثة من اولادهِ وكان قد

اوصى ابنهُ بان يقتل بعد موتهِ جميع من في السجون لكي يكون في كل بيت عويل ونحيب بعدهُ لئلا تسر الناس وتبتهج بفقدهِ اما ابنهُ فلم يفعل ذلك وكانت مدة ملكهِ سبعًا وثلاثين سنة ولهُ من العمر سبعون سنة وخلفهُ ابنهُ ارخلاوس الذي سمى نفسهُ هيرودس ايضًا . وهكذا كانت ملوك اليهود خاضعة للدولة الرومانية واستمروا على مثل ذلك الى بعد صعود المسيح بنحو اربعين سنة ثم انهم عصوا وتمردوا وخرجوا عن الطاعة وامتنعوا من حمل الخراج المرتب عليهم فلما نمى خبرهم الى قيصر رومية شق عليهِ الامر واستدعى اليهِ في الحال القائد وسبسيانوس وكان من عظماء رؤسائهِ وامرهُ ان يسير بالعساكر والجنود الى بلاد اليهود فيستاصلهم ويخرب مدنهم ويهدم حصونهم وقلاعهم فامتثل وسبسيانوس امرهُ وسار اليهم مع ابنهِ تيطس بالجيوش الرومانية فالتقاهم اليهود وحدث بين الفريقين معارك ووقائع هائلة كان اكثر الانتصار بها للرومانيين . ثم سار وسبسيانوس بجنودهِ الى طبرية وجبل الجليل وبعث الى اليهود يدعوهم الى الصلح ويعدهم بالجميل ان اطاعوهُ فلم يجبهُ اليهود الى سوالهِ . وكان قد حدث بين اليهود في تلك الاثناء انشقاق وانقسام حتى آل الامر بينهم الى حروب اهلية اضعفت شوكتهم وعجلت على خرابهم ودمارهم . وفي ذلك الوقت ورد الخبر الى وسبسيانوس بوفاة نيرون قيصر فسار وسبسيانوس الى رومية ليأخذ الملك لنفسهِ وولّى ابنهُ تيطس مكانهُ لكي يقوم بحصار اورشليم

وعظمت الحروب والفتن بين اليهود واشتد حنق بعضهم على بعض فاغتنم تيطس تلك الفرص وهاجم اورشليم وحدث بينهُ وبين اليهود وقائع هائلة قُتِل فيها من الفريقين خلقٌ كثيرٌ وكان تيطس قد ارسل الى اليهود مرّاتٍ كثيرة يدعوهم الى التسليم شفقةً عليهم من الهلاك وهم يمتنعون وكثيرًا ما خاطبهم بنفسهِ مشافهةً ووعدهم بالاحسان والعفو والجميل فلم يجدِ ذلك نفعًا بل كانوا يزدادون عصاوةً ويجيبونهُ بالشتائم والكلام المهين فغضب اخيرًا منهم وعزم على اعدامهم فشدّد الحصار على اورشليم واحاط بها من كل الجهات

وقطع عنها الامداد فاشتد الجوع بين الاهالي ومات اكثر اليهود وكانوا ياكلون الجلود ولحوم الكلاب حتى اضطرت احدى نسائهم ان تاكل ابنها حيًا . وكان تيطس قد زاد في القتال والحصار وباشر بنفسهِ الحرب ونصب آلات القتال واقام ابراجًا من حديد وشحنها بالمقاتلين وتقدم تجاه المدينة بقوة ونشاط وهدم اسوارها وافتتحها عنوةً بعد مقاومة عظيمة وهلك في اثناء هذا الحصار من اليهود حسب قول يوسيفوس المؤرخ نحو الف الف نفس واحترق الهيكل والمدينة بالنار وجرى دم القتلى في الاسواق كالسواقي وكان عدد المسبيين والاسارى سبعة وتسعين الفًا . وكان تيطس عند رحيلهِ من القدس بلقي منهم في كل منزلةٍ للسباع والوحوش الضارية فتمزقهم والباقون يبعوا عبيدًا في رومية

وكان قد بقي جانب من اليهود في اورشليم فاخذوا يرممون المدينة بعد رحيل الرومانيين واقاموا منها جانبًا عظيمًا فادركهم فيما بعد الامبراطور ادريان الروماني فهدم ما كانوا قد جددوهُ من اسوار المدينة وبيوتها وجعلها مساحة واحدة على الارض وفلحها وزرعها ملحًا وبهذه الحروب انتهى خراب اورشليم وانقرضت دولة اليهود اجمع وتفرّق شملهم وانتشروا في الاقطار ولم يقم لهم بعدها قائمٌ وكان ذلك اتمامًا لما انذر المسيح رسلهُ حيث قال لا يبقى من هذه المدينة حجرٌ على حجر

الباب السابع

في ذكر بعض انبياء اليهود ومجيء المسيح وتفرق اليهود في العالم

فلنرجع الان ونتكلم قليلاً عن بعض انبياء اليهود الذين كان الله يكلمهم ليرشدوا الشعب وينهوهم عن العبادة الاصنامية فمنهم النبي ايليا الذي اقام

ابن الارملة من الموت وكان نبيًّا عظيمًا وهو الذي كانت تاتيهِ الغربان بالقوت وهو الذي نطق بغضب الله الذي كان مزمعًا ان يحل على الملك اخاب الشرير وتنبأ بان الكلاب سوف تاكل جثة زوجتهِ ايزابل وهو الذي انزل نارًا من السماء وابتلعت رجلين من القواد مع عسكرها وهو الذي ضرب نهر الاردن بردائهِ فشقهُ واجتاز على اليابسة وهكذا سرَّ بهِ الله حتى انهُ نقلهُ حيًّا الى السماء بمركبةٍ من نار

ومنهم اليشع النبي الشهير الذي من جملة عجائبهِ انهُ عند ما لعن الاولاد الذين استهزأوا بهِ ظهرت دببان وافترستا منهم ٤٢ ولدًا وبعد موت هذا النبي باشهرٍ قليلة حدث انهُ وضع ميت في نفس المكان الذي كان قد دفن فيهِ فحالما مست جثة الميت عظام النبي نهض وعاش

ومنهم يونان النبي الذي ابتلعهُ الحوت وبقي في جوفهِ ثلاثة ايام ثم قذفهُ الى البر سالمًا ومنهم اشعيا وحزقيال وارميا الذين تنبأوا بالمصائب التي كانت مزمعة ان تاتي على اسرائيل ويهوذا . ومنهم دانيال الذي اختصهُ الله بحكمة فائقة وكان قد أُخذ الى بابل اسيرًا في السبي الاول وبمساعدة الله فسَّر للملك نبوخذ نصر حلمًا فنال نعمةً في عينيهِ وسلطةً على كل ولاية بابل وهو الذي فسر ايضًا لبلشاصر الملك ليلة الوليمة الكلمات المبهمة التي كتبت على الحائط التي كانت تشير الى انقراض مملكة اشور وهو الذي طرح في جب الاسود بامر الملك داريوس المادي لتمسكهِ بديانة الله وعدم انكار ايمانهِ واذ لم يصبهُ ادنى ضرر اخرجهُ الملك من الجب وامر بطرح الذين كانوا قد وشوا عليهِ فمزقتهم الاسود وقد ارتقى الى اعلى درجة سامية من الكرامة والمجد في زمن داريوس المذكور والملك كورش

اما نبوات هذا النبي فهي من اغرب واوسع من كل ما سواها لانها تتضمن انباء باحوال العالم عمومًا وبحال كنيسة الله في زمن اليهود والمسيح الى نهاية الزمان واشهر نبواتهِ الوحي بمجيء المسيح وتعيين الوقت سبعين اسبوعًا اي ٤٩٠

يومًا باعتبار كل يوم سنةً فاذا اعتبرنا بدلة هذه المدة من تاريخ صدور الامر المذكور في نبوة عزرا ٧ : ٢٥ الذي كان بنوعٍ خصوصي لاجل اقامة الناموس والحكومة وتثبيتها لا من الاوامر الصادرة قبلاً من الملك كورش وداريوس لانها كانت لاجل بناء الهيكل فقط تكون المدة الى ميلاد المسيح ٤٥٧ سنة واذا اضفنا اليها ٣٣ سنة وهي المدة من ميلادهِ الى موتهِ فيبلغ مجموعها ٤٩٠ سنة وهذا العدد يساوي المدة المعينة في نبوة دانيال

وذلك من خروج الامر بتجديد اورشليم
الى الوقت الذي فيهِ تصنع كفارة
الاثم ويؤتى بالبر
الابدي

الفصل الخامس

في تاريخ الماديين والفرس

الباب الاول

في بعض ملوكهم واحوال ميلاد كورش

انهُ اذ كان الماديون والفرس من نسلٍ واحد ولغة وديانة واحدة وبين كلٍ منها علاقة في الانساب وكانت بلادها متجاورة استصوبنا ان نضم هاتين المملكتين في فصل واحد ونتكلم فيهما كمملكة واحدة فنقول

ان بلاد مادي المعروفة الان باذربيجان والعراق العجمي الواقعة جنوباً بين الجبال المحيطة ببحر الخزر كانت قديمًا تحت حكم مملكة اشور واستمرت خاضعة لها الى سنة ٧٥٩ ق م عند ما نهض ارباسيس قائد جيوش سردنفول ملك اشور واتحد مع بيليزيس واهاجا تلك الثورة التي تقدمت عند ذكر مملكة اشور واقتسما البلاد

فبعد وفاة ارباسيس المذكور اقام الماديون عليهم ملكًا اسمهُ ديجوسيس وكان حكيمًا عاقلاً يقضي بالعدل والاستقامة بين الجميع ولما استقر لهُ الملك شرع في بناء مدينة عظيمة سماها اكباتانا قيل هي همذان وجعل لها سبعة اسوار متينة وحصينة بنوع ان كل سور من هذه الاسوار لا يعلو عن الثاني الا بمقدار شُرَفهِ فقط وكانت تختلف هذه الشُرَف في الالوان ما بين ابيض واسود وازرق واحمر وارجواني وكان السادس من فضة والسابع من ذهب وداخل السور السابع كانت سراية الملك ديجوسيس المذكور وقد صنع بها محلاً حصينًا

لحفظ خزائنهِ وكنوزهِ واما الشعب فكان يسكن بين الاسوار . وحكم د يجوسيس ٥٣ سنة من دون ان يقيم حربًا وكان مهيبًا عند الجميع لانهُ لم يكن يتنازل لمخالطة الشعب ومجالسة الكبار بل كان يتعاطى اشغالهُ على انفراد وكانت الدعاوي تعرض عليهِ بالورق فكان يقضيها ويرسلها بانَّا الحكم عليها . وكان لهُ جواسيس في كل اطراف المملكة يلاحظون اعمال الرعايا ويقررون لهُ عن احوالهم . وجلس بعدهُ على تخت الملك ابنهُ فراورت فاقام حروبًا عديدة واخضع لسلطنتهِ بلاد فارس وجملة ما لك من اسيا ثم اقام الحصار على نينوى ولكن مع ضعف شعوبها في ذاك الوقت لم يتيسر لهُ امتلاكها وقُتِل امام اسوارها مع جانب عظيم من جنودهِ وكانت مدة ملكهِ ١٢ سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ كياكسار وكان محبًا للحرب اكثر من ابيهِ وهو اول من شرع في ترتيب نظام العساكر فقسمها الى فِرَق وصفوف كمشاة وخيالة ورماة القوس فان هذا الترتيب لم يكن قبل ذلك بل كانت تختلط فرق العساكر بعضها مع بعض عند الحرب

ومن اشهر انتصارات هذا الملك افتتاحهُ مدينة نينوى وقد اخذ بثار ابيهِ من اهلها فانتقم منهم واستعبدهم ثم جال بجنودهِ واستولى على شمالي ما بين النهرين وجعل لهُ مدخلاً الى اسيا الصغرى فاخضعها واذلها واضافها الى مملكهِ ثم تقدم الى ما وراء نهر هاليس وحارب الليديين وكان السبب في ذلك ان قسمًا من السكيثيين كانوا قد قصدوهُ ملتجئين اليهِ فقبلهم واحترمهم وعلى الخصوص لما رآهم يحسنون رمي السهام فامرهم ان يعلموا اولاد مادي لغتهم مع هذا الفن ووكل اليهم مائدتهُ الخاصة فكانوا يذهبون الى البرية في كل يوم ويصطادون لهُ من الطيور والغزلان ويصنعونها طعامًا لهُ فاتفق انهم خرجوا يومًا كعادتهم ورجعوا من الصيد ولم يأتوا بشيء واذ كان كياكسار سريع الغضب عاملهم بقساوة شديدة فغضبوا منهُ وارادوا ان ياخذوا بثارهم فجاءوا باحد الاولاد الذين وُكل اليهم تعليمهم وتربيتهم وقطَّعوهُ وصنعوهُ طعامًا للملك كما

كانوا يصنعون بالصيد ووضعوهُ على مائدتهِ وذهبوا حالاً الى بلاد ليديا واستغاثوا بملكها فاغاثهم ولما اكل كياكسار ومن عندهُ من ذلك الطعام المذكور وعلم بحقيقة الحال غضب غضبًا شديدًا وارسل يومئذٍ سفيرًا الى ملك ليديا وكان اسمهُ آليات يطلب منهُ تسليم القوم فأبى وامتنع فحقد عليهِ كياكسار واضمر لهُ السوء وزحف اليهِ بجندهِ لينتقم منهُ ولما اقترب من تلك البلاد استقبلهُ ملك ليديا بجيوشهِ وجنودهِ وانتشبت الحرب بينهم مدة خمسة ايام متوالية ولم يغلب احدٌ . وفي اليوم السادس بينما كان القوم في اشد قتال انكسفت الشمس انكسافًا عظيمًا وتحوَّل نور النهار الى ظلمة دامسة حسبما كان اخبر عن ذلك طاليس الفيلسوف اليوناني الذي كان معدودًا من الحكماء السبعة وهو اول من اشتهر بين اليونان في علم الفلك والهندسة . ولما شاهد ملك مادي وملك ليديا تلك الحادثة المخيفة كفَّا عن الحرب وعقدا صلحًا ولاجل تثبيت هذا الصلح وتاكيد عهد المحبة بين الطرفين زوَّج ملك ليديا ابنتهُ بالامير استياج ابن الملك كياكسار وجعل وزراء الدولتين جراحًا خفيفة في ايديهم وشربوا بالتبادل الدم الذي جرى منها علامة للارتباط والتحابّ حسب عادتهم في ذلك الزمان ثم رجع كياكسار الى بلادهِ ومات عقيب ذلك وكانت مدة حكمهِ نحو اربعين سنة وخلفهُ ابنهُ استياج المذكور انفًا سنة ٥٨٥ ق م

وكان قد ولد للملك استياج ابنة اسمها ميندان فلما كبرت زوَّجها بكمبيز ملك فارس وكانت مملكة فارس يومئذٍ خاضعة للماديين . فحدث بعد ذلك بايامٍ قليلة ان استياج راى حلمًا وهو ان الكرمة التي كانت في بستانهِ خرجت من قصر ابنتهِ المذكورة وامتدت غصونها حتى انها ظللت كل اقاليم اسيا فنهض من فراشهِ خائفًا مذعورًا وعند الصباح استدعى اليهِ السحرة وقص عليهم تلك الرؤيا فاجابوهُ ان ابنتهُ ميندان ستلد ابنًا يحكم على جميع ممالك اسيا ويستولي على مملكة مادي ايضًا فراعهُ ذلك وتاثر من هذا الكلام واستدعى ابنتهُ من بلاد فارس وحجزها عندهُ قاصدًا اعدام الطفل الذي يولد منها ولم

بعض الا اشهرٌ قليلة حتى وضعت ولدًا ذكرًا فتحقق استياج كلام السحرة ودعا اليهِ رجلًا من خواص قوادهِ يقال لهُ ارباغوس وكان يعتمد عليهِ في جميع امورهِ وقال لهُ اريد منك الان ان تاخذ هذا الطفل الصغير الى بيتك وتقتلهُ وتستر قتلهُ ولا تخالفني في هذا الامر فتندم ثم سلمهُ اياهُ وكانت امهُ قد البستهُ ملابس فاخرة وثمينة فاخذهُ ارباغوس ورجع الى بيتهِ حزينًا كئيبًا واخبر زوجتهُ بما كان من امر استياج بخصوص الولد فقالت لهُ ماذا عولت انت ان تفعل قال قد أُجبرتُ على قتلهِ وانا اخاف ان قتلتهُ بيدي اكون قد سفكت دمًا بريًّا لا سيما انهُ من اهل الولد والامر الاعظم من ذلك هو ان الملك استياج قد تقدم في السن وليس لهُ ولد يرث سرير المملكة من بعدهِ الا ابنتهُ منдане ام هذا الطفل فلا شك انها ستقتلني انتقامًا على قتلي ولدها ولكي اكون مطمئنًا من هذا القبيل فليجرَ هذا الامر على غير يدي ثم انهُ استدعى اليهِ احد رعاة مواشي استياج وكان اسمهُ ميترادات واسم زوجتهِ سباكو التي معناها كلبة في اللغة المادية وقال لهُ قد امرني الملك ان اقول لك ان تاخذ هذا الطفل وتلقيهُ على اوعر الجبال ليهلك ويموت واعلم يقينًا انك اذا ابقيتهُ حيًّا سيميتك في الحال باشنع ميتة فاخذ ميترادات الولد ورجع الى بيتهِ واتفق ان زوجتهُ ولدت في ذلك اليوم ابنًا ميتًا وكانت في قلق واضطراب عظيم عند ما استدعى ارباغوس زوجها اليهِ اذ لم يكن لهُ عادة ان يستدعيهُ فلما رجع اليها واعلمها بواقعة الحال توسلت اليهِ ان لا يقتل الولد فقال لا بد من قتلهِ لان ارباغوس سوف يرسل اناسًا ليكشفوا لهُ الخبر فيقتلني فقالت لهُ انا ادبر لك طريقة مناسبة تنجيك من هذا الخطر قال وما هي قالت اني قد ولدت ابنًا ميتًا فخذهُ وضعهُ على بعض الجبال ونحن نربي ابن منдане ابنة الملك استياج كابننا وبهذه الواسطة لا يقدر احد ان يقول لك انك خالفت امر سادتك ويكون لنا بذلك حظ وافر وشرفٌ رفيع فاستصوب الراعي راي زوجتهِ ودفع اليها الولد ووضع ابنهُ الميت في سرير ذلك الامير الصغير مع كل ما كان عليهِ من الثياب النفيسة واخذهُ

الى جبل عال والقاهُ هناك ورجع فاخبر ارباغوس بانهُ قد تمّم كل ما امرهُ بهِ فارسل ارباغوس من يعتمد عليهِ ليتحقق ذلك ولما علم بموتهِ لمربدفيو واما الامير الصغير فربتهُ سباكو زوجة الراعي ودعت اسمهُ كورش . فهذا هو الملك كورش المشهور الذي شاع ذكرهُ في تلك القرون وتغلّب على ممالك كثيرة وافتتح مدنًا حصينة وهو كسرى الاول من ملوك الفرس

فنشا كورش ولدًا نجيبًا وكان يلعب مع اولاد تلك القرية التي ربي فيها فلما بلغ سن العشر اقامهُ الاولاد رئيسًا عليهم فكان يحكم بينهم ويجري اوامرهُ عليهم ويقيم منهم حرّاسًا على بلاطهِ الوهميّ حسب عوائد الملوك ويختار منهم قوادًا ونظارًا ويقلدهم الوظائف والمصالح وينظم بعضهم في زمرة جنود وعساكر واعوان وكان احيانًا يامر على بعضهم بالضرب وبعضهم بالحبس ويقول قد حكمت بذلك وكان من جملة الاولاد غلامٌ من اهل اشراف مادي فاتفق انهُ رفض بعض اوامر كورش فامر الاولاد ان يقبضوا عليهِ واخذ يضربهُ بالعصا ضربًا مولمًا فذهب الغلام الى المدينة واخبر اباهُ بما فعل بهِ ابن الراعي فغضب ابوهُ جدًا واخذ ابنهُ واجتمع بالملك استياج وقص عليهِ تلك القصة واراهُ اثار الضرب على اكتاف ابنهِ فبعث الملك رسولاً ياتي لهُ بميترادات الراعي وابنهِ . فلما مثلا بين يديهِ قال الملك لكورش ناظرًا اليهِ بعين الاحتقار كيف تجاسرت ان ترفع يدك وتضرب من هو اعظم واشرف منك فاجابهُ كورش وقال يا مولاي اني لم افعل ذلك الا بالعدل والانصاف لانهُ كما لايخفى على عظمتك ان اولاد القرية الذين كان بينهم هذا السيد الشريف اقاموني ملكًا عليهم لما كانوا يلعبون وفوضوا اليّ امرهم وكانوا كلهم يطيعون اوامري وانا انصف بينهم ولما كان هذا الغلام قد خالف شروط الترتيب والقوانين بعصيانهِ وعدم امتثالهِ لاوامري واحكامي قاصصتهُ على مخالفتهِ فاذا كان ذلك ذنبًا يستحق العقاب ايها الملك فها انا بين يديك من جملة العبيد فافعل بي ما تريد فلما سمع الملك هذا الكلام واحدق جيدًا بالولد اندهش وحار من

سرعة جوابهِ وعذوبة كلامهِ وعرف انهُ ابن مندان ابنتهِ لانهُ كان اشبه الناس بها ولاسيما ان عمرهُ كان موافقًا لتلك الحادثة التي ذكرناها فلبث برهةً لم يتكلم ثم امر بادخال كورش الى البلاط واستدعى الراعي اليهِ وسالهُ على انفراد من ابن اخذ الولد وممن استلمهُ فاجاب انهُ ابوهُ وان امهُ حية فتهددهُ بالكلام فاقرَّ الراعي بما كان واعاد عليهِ القصة من اولها الى آخرها ولما وقف استياج على الحقيقة لم يحاسب على الراعي ولكنهُ غضب على القائد ارباغوس فامر حراسهُ ان ياتوا بهِ حالاً فلما اتى قال لهُ اعلمني الحقيقة ماذا فعلت بالولد الذي دفعتهُ اليك لتميتهُ فاقر ارباغوس بما كان ولم يكتم عنهُ شيئًا خوفًا من العواقب فسكن الملك ارتعاشهُ وقال لهُ ان الولد باقٍ في قيد الحياة ثم قال يا ارباغوس ان صنيعك هذا قد سرني جدًّا لان ابنتي كانت قد عنفتني على ذلك فندمت على ما صدر مني واذ ذاك سأعتني من الآن وصاعدًا بتربيتهِ وتهذيبهِ فارسل ابنك الآن الى داري ليلعب معهُ ويؤانسهُ وانت تعال في هذه الليلة وتعشى معي فاني اريد ان اقدم تقدمة للآلهة شكرًا لهم لانهم رحموني وردُّوا عليَّ حفيدي بالسلامة

فشكر ارباغوس الملك على ملاطفتهِ لهُ وارسل ابنهُ في الحال الى البلاط وكان وحيدهُ ولهُ من العمر ثلث عشرة سنة . فلما راهُ الملك امر الخدام بذبحهِ وان يقطعوا لحمهُ ويطبخوهُ ويجعلوا منهُ الوانًا مختلفة من الطعام ويضعوها وقت العشاء امام ابيهِ ارباغوس وان يضعوا الراس والرجلين في سلة مغطاة ويفردوها في ناحية لوقت الطلب فامتثلوا امرهُ وذبحوا الغلام وباشروا في امر الوليمة وهيأوا كل شيء فلما حان وقت العشاء اتى المدعوون ومعهم ارباغوس وعند جلوسهم على المائدة قدموا الى استياج والباقين الاطعمة المطبوخة من لحوم الضان والطيور والى ارباغوس لحم ابنهُ فاكل وهو لا يعلم ولما فرغوا من الطعام قال الملك كيف رايت هذا العشاء فاجابهُ انهُ سرَّ بهِ احسن سرور فامر حينئذٍ الخدام ان ياتوا بتلك السلة ويضعوها امام ارباغوس فاحضروها

ووضعوها امامهُ فقال لهُ الملك ارفع غطاءها فرفع عنها الغطاء واذا بهِ يرى من داخلها بقايا ابنهِ فانكسر قلبهُ واقشعر جسمهُ وغاب عن الصواب ولكنهُ اظهر الجلد واخفى حزنهُ وغمهُ وقال ان كل ما صنعهُ الملك هو مقبول لديهِ ثم رجع الى بيتهِ حزينًا كئيبًا ودفن عظام ابنهِ

وكان استياج قد صفح عن قتل كورش وارسلهُ من ذلك اليوم الى اهلهِ في بلاد فارس وكان ابواهُ كمبيز ومندان قد ظنّا انهُ مات فلما اشرف عليهما واخبرهما بواقعة الحال وكيف ربتهُ سباكو زوجة راعي البقر التي لم يزل يشكر فضلها ولا ينسى معروفها كل مدة حياتهِ فرحا بسلامتهِ . وكان كورش ينمو في القامة والقوة والجسارة حتى صار من انجب شبان عصرهِ وانبههم

الباب الثاني

في اصل الاعجام وتدمير كورش مملكة بابل ومغازيهِ المشهورة وموتهِ

اصل شعوب الفرس من ذرية عيلام بن سام بن نوح وكانوا يدعون عيلاميين نسبةً الى عيلام المذكور ولكننا لا نعلم من امرهم شيئًا واضحًا الاَّ بعد مضيّ نحوِ الف وثمانماية سنة من الطوفان وذلك من وقت ظهور الملك كورش المذكور

وكان ارباغوس المقدَّم ذكرهُ يترقب الفرص لياخذ بثارهِ من استياج الذي قتل ولدهُ واطعمهُ من لحمهِ فاخذ يسعى في هلاكهِ ويدبر على انقراض مملكتهِ بواسطة تهييج وزراء الدولة عليهِ بالدسائس الخفية فراسل كورش سرًّا وحثهُ على النهوض لاخذ بلاد مادي ووعدهُ بالمساعدة والامداد واذ كان

يخاف من وقوع رسائلهِ بين ايدي المحافظين والحرّاس وانكشاف امرهِ كان ياتي بالارنب ويشق بطنهُ بدون ان يجز صوفهُ ويضع الكتاب في جوفهِ ثم يخيطهُ ويلقيهِ في شبكة ويعطيهِ لاحد خدّامهِ الذي يثق بهِ حتى كل من يراهُ لايشك بانهُ من جماعة الصيادين ثم يامرهُ ان يذهب بهِ الى كورش على تلك الصورة

وكان كورش في تلك الايام قد عظم شانهُ وارتفع مكانهُ واحترمهُ جميع اهالي فارس نظرًا لنجابتهِ وعلوّ همتهِ فلما وقف على رسائل ارباغوس اخذ يستميل قلوب عظماء الاعجام اليهِ ويحثهم وينهض هممهم ليوافقوهُ على قتال الماديين واستخلاص مملكة الفرس من حكمهم فاجابوهُ الى ذلك لانهم كانوا يريدون الاستقلال والتخلص من جورهم وظلمهم وفي ايامٍ يسيرة انضمت اليهِ القبائل والطوائف واخذ يجمع الجيوش والعساكر حتى صار عندهُ جيشٌ عظيم من الفرسان والشجعان

ولما بلغ الملك استياج ذلك الخبر ارتاب وخاف عاقبة الامر فارسل بعض معتمديهِ الى كورش يستدعيهِ اليهِ على سبيل الزيارة فاجاب كورش وقال لذلك الرسول ارجع الى مولاك وقل لهُ يقول لك كورش انهُ سيزورك عن قريب بالابطال والفرسان واعيان الفرس فلما وقف استياج على هذا الخطاب تحذّر من ذلك اليوم فجمع الجيوش والجنود وجعل ضباط المشاة والخيالة تحت قيادة ارباغوس

واما كورش فانهُ بعد ذلك الكلام الذي كان قد ارسلهُ الى الملك استياج بايامٍ يسيرة زحف اليهِ بجموعهِ وابطالهِ . فلما تقابل الجمعان وانتشبت الحرب بين الفريقين فالعساكر الذين لم يكن ارباغوس اعلمهم بمقاصدهِ حاربوا بشجاعة وبسالة بخلاف الاخرين فانهم تاخروا عن القتال وانضمّ بعضهم الى صفوف الاعداء . وكان ذلك يومًا عظيمًا بين القوم اشتدّ فيهِ القتال واتسع المجال وسفكت الدماء وكان قد داخل الفرس الحماسة فقاتلوا بقوة ونشاط

وانعطفوا على اعدائهم فكسروهم وهزموهم بعد ان قتلوا منهم عدداً كثيراً واسروا جمًّا غفيرًا وكان من جملة الماسورين الملك استياج فبقي في اسر كورش الى ان مات وكانت مدة ملكهِ ٣٥ سنة

وبعد وفاة استياج تبوأ تخت ملك مادي ابنهُ كياكسار الثاني وهو داريوس المادي خال كورش فكان كورش ملكًا على فارس تحت يدهِ وقائد جيوش كل بلاد مادي وكان صاحب الامر والنهي مكرمًا ومهابًا عند الجميع ولم يكن لداريوس من الولاية والسلطنة الاَّ مجرد الاسم فقط وجميع الامور بيد كورش

وكانت مدة ولاية داريوس على بابل نحو سنتين وبعد وفاتهِ اختلس المملكة رجلٌ من اشراف بابل يدعى نابونابيوس وكان كورش ابن اخت داريوس يومئذٍ ملتهيًا في حروبهِ وافتتاحاتهِ ممالك اسيا فلما اتصل اليهِ ذلك الخبر حوَّل وجههُ نحو بابل ليتقم من ذلك المختلس واحاط بها بجيوشهِ مدة سنتين ولم يقدر عليها لتحصينها بأسوارٍ مرتفعة وقوية حتى كان هدمها او افتتاحها من اصعب الامور وماذا تفعل الشجاعة او الأدوات الحربية كالمنجنيق وغيرهِ في سور عرضهُ ثلثون قدمًا او خمسون على قول البعض فكان السبيل الوحيد للدخول الى المدينة هو تحويل نهر الفرات عن مجراهُ فانهُ كان يمر في وسط بابل ويقسمها الى شطرين . فاعتمد على هذا العمل سرًّا وامر بفتح تُرَع وخلجان كبيرة حول المدينة ولما تمت اختار وقتًا مناسبًا لاتمام مقاصدهِ فامر بفتح المنافذ التي بين النهر والتُرَع المذكورة آنفًا فتحولت كل مياه الفرات الى تلك الخلجان وصار النهر ارضًا يابسة فدخلت عساكر الفرس وكورش في مقدمتهم بعضهم من عند مدخل النهر والبعض من عند مخرجهِ منها وهجموا على اهل المدينة بغتةً وفتكوا بهم فتكًا عظيمًا فكانت ساعة مهولة لم يُعرَف فيها صوت العدو من صوت الصديق فاستولى كورش على المدينة وامتلكها واذ لم يكن لداريوس المذكور اولاد ورث كورش من خالهِ مملكتي مادي وبابل وضمها الى مملكة

فارس وصارت هذه الممالك من ذلك الوقت مملكة واحدة تحت تسلط كورش. وظن اكثر المؤرخين القدماء ان افتتاح كورش مدينة بابل كان في زمن الملك بلشاصر غير انهُ قد ظهر وتحقق من الاكتشافات الحديثة انهُ بعد موت بلشاصر المذكور تناوب كرسي المملكة ابنهُ لابورا سوارخاد وحكم مدة سنة واحدة فلو كان كورش قد افتتح بابل في ايام بلشاصر لما سمح لابنهِ ان يملك بعدهُ بل كان من باب اولى ان يقيم خالهُ داريوس ملكًا بعد افتتاح المدينة وهذه دلالة قوية تؤيد صحة ما اوردناهُ

وكان الملك كورش موفقًا منصورًا في جميع وقائعهِ فاخضع الفرثيين وجميع البلاد التي بين النهرين وارمينيا وسورية واسيا الصغرى وجانبًا عظيمًا من بلاد العرب وضرب الخراج على ملوكها وولاتها وكان قد عبر بجيشهِ الجرار نهري دجلة والفرات وجعل معسكرهُ في اقليمي خوزستان والعراق . ومن جملة انتصاراتهِ العظيمة استيلاؤهُ على مملكة ليديا واذلالهُ ملكها كريسوس الذي كان افتتح جملة ولايات في اسيا

ولكن اذ لم يكن للانسان دوام ولو مهما ساد وظفر انتهت حياة كورش في حربٍ اقامها على السكيثيين المعروفين الآن بالتتر القاطنين تجاه بحر الخزر فالتقتهُ الملكة طوميريس بجيوشها وابطالها وحدث بين الفريقين قتالٌ شديد قتل فيهِ ابن هذه الملكة وكانت الدائرة على الفرس فانهزموا اقبح هزيمة وأُسر منهم عددٌ كثيرٌ وكان من جملة المأسورين الملك كورش فقتلتهُ الملكة بولدها وكانت مدة ملكهِ ٣٠ سنة

الباب الثالث

في ولاية الملك كمبيز بن كورش وقد سمى نفسهُ بختنصر الثاني

ثم جلس بعد كورش على سرير المملكة ابنهُ كمبيز وكان عاتيًا جدًّا جافي

الطبع سفاكًا للدماء عديم الشفقة محبًّا للحروب وافتتاح الممالك مغرمًا بشرب الخمر ومما يحكى عنهُ انهُ طلب يومًا من احد ندمائهِ المسمى بركزاسيس على ان يخبرهُ بما تقول الناس عنهُ فقال لهُ انهم يمدحون احكامك وحسن اوصافك ويرون انهُ لا عيب فيك الَّا الانهماك بالخمر ولولا ذلك لفضلوك على جميع الناس ثم اخذ ينصحهُ ويبين لهُ الاضرار الناتجة من ادمان المسكرات فلما سمع كمبيز كلامهُ غضب وطلب ان يؤتى اليهِ بكمية وافرة من الخمر فشرب منها مقدارًا كثيرًا ثم امر باحضار ابن بركزاسبس وامرهُ ان يقف في آخر القاعة وقال لابيهِ اريد ان تعلم الآن ان كانت الخمر قد اضعفت بصري او غيبت فكري وارجفت يدي ثم طلب قوسًا ونشابًا ورمى الولد بسهم في فوادهِ فوقع قتيلاً

وقد ذكرنا هذه القصة المحزنة واثبتناها هنا اولاً لصحتها وثانيًا ليتخذ القاري والسامع الامثلة المفيدة من جهة تعاسة تلك العصور المظلمة وسعادة هذه الايام المنورة التي يبذل فيها الملوك غاية العناية والهمة في نجاح امور شعوبهم ورعاياهم ومعاملتهم لهم كبنين وليس كعبيد وهذه المعاملات الحسنة ليست ناتجة الَّا من نور الديانة التي تامر بان نعامل الناس كما نريد نحن ان يعاملونا

وكانت افكار كمبيز ومقاصدهُ متجهة نحو افتتاح بلاد مصر في زمن فرعون اماسيس وقد نقل المؤرخون في شان ذلك اخبارًا مختلفة فمنها ان اماسيس المذكور كان قد تمرَّد على الدولة الفارسية وعصى عليها واستقل بالمملكة بعد ان كان قد افتتحها الملك نبوخذنصر الاول واقام عليها عمالاً ويقال ان الذي حملهُ على ذلك رجلٌ يوناني اسمهُ فانيس كان قائد جيوش اماسيس وكان قد حدث بينهُ وبين مولاهُ نزاع ونفور فحقد عليهِ وانتهز هذه الفرصة وقصد الملك كمبيز واغراهُ بقتال اماسيس وافتتاح المملكة المصرية واشار عليهِ ان يخاطب ملك العرب ويطلب اليهِ المساعدة والامداد بجلب الماء الى العساكر في البرية التي كان مزمعًا ان يمرَّ بها فارسل كمبيز رسلاً الى ملك العرب يطلب اليهِ المعونة على قطع تلك الفلوات الشاسعة وعاهدهُ بقسم انهُ

يكون له صديقًا وامينًا كل ايام حياتهِ فتعاهد الاثنان على ذلك وتحالفا على عدم الخيانة ونقض العهود وبعد ذلك جهز كمبيز الجيوش وقادها بنفسهِ وزحف قاصدًا الديار المصرية وارسل ملك العرب يومئذٍ كل الجمال الموجودة في مملكتهِ الى البرية محملةً زقاقًا مملوة ماء

وفي اثناء ذلك توفي فرعون اماسيس ملك مصر وتولى مكانهُ ابنهُ سمانيتوس فلما بلغهُ قدوم كمبيز اليهِ جهز جيوشًا لمقاومتهِ فالتقى جيش الفرس وجيش مصر عند مصب النيل الشرقي في مكان يدعى سين واشتبك القتال بين الفريقين واشتدت بينهم الحرب وكان يومًا هائلاً قتل فيهِ من الطرفين عددٌ كثيرٌ فانتصرت الفرس انتصارًا عظيمًا وانهزم الجيش المصري بخسارة جسيمة الى مدينة منفيس فتبعهم كمبيز بجيوش فارس الى هناك وحاصر المدينة وافتتحها عنوةً بعد وقائع وهجمات هائلة وقبض على سمانيتوس وقتلهُ وابنهُ معًا

وقال هيرودوتس في تاريخهِ اني رايت في الميدان الذي وقعت فيهِ الحرب الاولى عند مصب النيل الشرقي عظام الذين قتلوا في ذلك اليوم مكومة من كل جهة فكانت جماجم الفرس ليّنة بهذا المقدار حتى انها كانت تثقب بوقع حجر صغير واما جماجم المصريين فكانت صلبة لا تكسر ولا بضربة حجر كبير فسالت عن السبب فقيل لي ان المصريين يحلقون شعور رؤوسهم وهم صغار السن فتشتد الجمجمة وتصلب بواسطة حرارة الشمس واما الفرس فلم يعتادوا ذلك فبقيت جماجمهم ضعيفة لينة

واذ كان كمبيز يعلم ان المصريين يعظمون الكلاب والهرر ويوقرونها ويعتبرونها كالهة امر بجمع كل الكلاب والهرر التي في تلك النواحي ووضعها في مقدمة العسكر عند حصارهِ بعض المدن المصرية فتوقف المصريون عن اطلاق نبالهم على الفرس خوفًا من ان يصيبوا احدى تلك الحيوانات المقدسة فتموت ولبثوا في اماكنهم محتارين وكانت الفرس تتقدم عليهم رويدًا رويدًا والكلاب تنبح والهرار تموء حتى دخلوا المدينة وتملكوها بدون مقاومة

ولما اخضع كمبيز كل بلاد مصر قصد مدينة هايس التي فيها مدافن ملوك مصر فاخرج جثة الملك اماسيس من قبرها وهو الملك الذي كان متوليًا على مصر عند ما نهض لمحاربتهِ وبعد ان ضربها بالعصا وعاملها بكل نوعٍ من الاهانة والتعيير امر بطرحها في النار فاحترقت في الحال وكان ذلك مضادًا لعوائد الفرس والمصريين جميعًا . وكان قد نهب مدينة قبس في بلاد الصعيد وهدم ابراجها وهياكلها واحرق نقوشها وختم ذلك بذبح الثور ابيس الذي هو بحسب اعتقاد المصريين الاله المعظم وفرق لحمهُ على قواد عسكرهِ فكان هذا العمل مما يعد عند المصريين من التعديات الكفرية ومن ذلك الوقت لم يكن افعال هذا الملك الاَّ ذميمة قبيحة حتى انهُ تزوج باختهِ وقتل اخاهُ سمرديس ثم قتل زوجتهُ المذكورة حيث كانت تندب اخاها الى غير ذلك من الامور الوحشية

وفي آخر ايامهِ في مصر حدثت فتنة عظيمة في بلاد فارس وهي ان النائب الذي كان قد اقامهُ كمبيز وكيلاً عنهُ على المملكة في غيابهِ طمع في اختلاس الملك وعمد ان ينقلهُ الى عائلتهِ فاقام اخاهُ ملكًا وكان من السحرة واشبه الناس بسمرديس اخي كمبيز الذي قتلهُ كما ذكرنا فبايعهُ الفرس وملكوهُ عليهم لتفتهم بانهُ ابن كورش اذ كان قد ادعى بذلك فلما بلغ كمبيز هذا الخبر خرج من مصر بعد ان صيرها ولاية فارسية ودخل بلاد سورية واشرع قاصدًا بلاد فارس فاتفق يومًا انهُ وهو يركب جوادهُ اندلق سيفهُ من غمدهِ فجرحهُ في جنبهِ جرحًا بليغًا والزمهُ فراشهُ فمات بعد ايامٍ قليلة بعد ان حكم مصر خمس سنين وكانت مدة ملكهِ سبع سنين ونصفًا

الباب الرابع

في ولاية الملك داريوس وهو دارا الاول احد ملوك الفرس وابنهُ زركسيس

وكان قد تولى على تخت فارس ذلك الساحر المذكور الذي ادَّعى انهُ سمرديس ابن كورش كما مر الاَّ انهُ لم تطل مدتهُ حتى انكشف امرهُ وتحقق عند اكثر الاهالي ان تلك الدعوى كانت حيلة منهُ وان ولايتهُ لم تكن الاَّ مجرد خداع وطغيان فاتفقوا على خلعهِ واجتمع ستة انفار من اكابر اعيانهم منهم داريوس بن هيسنسب احد امراء تلك الولايات وهجموا على قصر الملك وقتلوا سمرديس الساحر المغتصب ولم يحكم الاَّ ستة اشهر فقط ثم اختلف هولاء الاعيان الستة في من يتولى منهم زمان المملكة الفارسية فاتفق رايهم اخيرًا على ان يركبوا خيولهم عند الصباح ويقصدوا مكانًا معلومًا خارج المدينة وان الرجل الذي يصهل حصانهُ اولاً يكون هو الملك وبهذه الوسيلة لا يقع بينهم نزاع . وكان لداريوس سائس نبيه ماهر فلما بلغهُ ذلك الخبر لبث حتى اظلم الليل ثم نهض وركب حصان مولاهُ واخذ معهُ جانبًا من العشب والاطعمة التي كان الحصان يودُّ اكلها وقصد ذلك المكان المذكور والقاها هناك ثم جعل يجول نحوها بالحصان تارةً من خلف وتارةً من قدام واستمر على مثل مثل ذلك نحو نصف ساعة ثم نزل عن ظهر الحصان واطلقهُ على تلك الاطعمة فاكلها ثم ارتد راجعًا الى المدينة ولم يطعم الحصان شيئًا طول ذلك الليل . ولما كان الصباح ركب الامراء الستة خيولهم حسب الشروط الذي وقع عليهِ الاتفاق وقصدوا ذلك المكان المعهود الذي اكل فيهِ حصان داريوس تلك الاطعمة وعند وصولهم اليهِ رفع الحصان اذنيهِ وصهل فترجل حينئذٍ اصحاب داريوس الخمسة وخروا

ساجدين عند قدميهِ وهنأوهُ بالمنصب الملكي واقاموهُ يومئذٍ ملكًا على سلطنة الفرس

وكان الملك كورش وابنهُ كمبيز قد حسنا هذه المملكة ووسعاها ونظما امورها في اقل من عشرين سنة فلما اتسعت اقاليمها وتكاثرت مقاطعاتها قسمها داريوس الى عشرين كورة وصرف همتهُ وعنايتهُ ليمهد لها اسباب الثروة والغنى بواسطة اتساع دوائر التجارة بين بلاد الفرس وباقي الممالك واقام داريوس حروبًا كثيرة افتتح في احداها مدينة بابل ثانيةً لان اهلها كانوا قد تمردوا وعصوا الفرس وكان افتتاحهُ لهذه المدينة بطريقة عجيبة احتيالية وهي ان احد قوّاد جيوشهِ زوبير احذق اهل زمانهِ وانبههم قطع يومًا اذنهُ وهشم وجههُ بالجراحات وذهب الى بابل واستغاث باهلها من جور داريوس الذي كان يومئذٍ يحاصر المدينة فسالوهُ عن سبب ذلك فاخبرهم انهُ من جملة قواد الفرس وانهُ عند ما نصح داريوس ونهاهُ ان يرجع عن حرب بابل لانها حصينة جدًّا احتقرهُ واهانهُ بقطع اذنهِ وتهشيم وجههِ وقد كاد بقتلهُ فهرب ليلاً واقسم على نفسهِ انهُ لا بد لهُ ان يسعى في اهلاك الفرس . فترحب بهِ اهل بابل واقاموهُ قائدًا على فرقةٍ صغيرة . وكان زوبير قد اتفق مع داريوس ان يرسل لهُ في اول الامر طليعة مؤلفة من الف نفر من اوباش العجم وصعاليكها لتهجم على المدينة من احدى جهاتها وانهُ يخرج اليها ويمحوها كلها ثم يرسل لهُ في اليوم الثاني كتيبة اخرى تحتوي على الفي مقاتل فيهلكها ايضًا ثم يرسل اليهِ في اليوم الثالث فرقة اخرى مولفة من اربعة الاف فيلحقها برفقائها وبعد ذلك يهجم هو بنفسهِ على المدينة بجميع عساكرهِ وابطالهِ هجمة واحدة فيسلمهُ اياها . ففعل داريوس كل ما اشار بهِ زوبير وكان البابليون عند ما راوا زوبير قد فتك بطلائع الفرس في ثلاث وقائع متتابعة وقتل سبعة الاف نفر من الاعجام احبوهُ واتمنوهُ واقاموهُ رئيسًا عامًّا على جيوشهم وسلموهُ زمام محافظة المدينة فلما كان اليوم الرابع هجمت جموع الفرس على المدينة واحاطوا بها

فخرج اليهم زوبير ولكنهُ عوض ان يقاتلهم ويصدهم فتح لهم الطريق للدخول فدخلوا وامتلكوها على اهون سبيل بعد ما حاصروها ستة عشر شهرًا

ومن حروب داريوس ايضًا حربهُ مع السكيثيين الذين قتلوا الملك كورش وبعد عدَّة وقائع هائلة ارتد راجعًا مهزومًا وقتل من عسكرهِ عدد كثير. ثم حارب بلاد الهند وافتتح منها جانبًا . وكان هذا الملك قاسي القلب سفاكًا للدماء ومما يحكى عن قساوتهِ انهُ بينما كان متجهزًا لقتال السكيثيين المذكورين الزم رجلاً عاجزًا ان يقدم اولادهُ الثلاثة للعسكرية واذ لم يكن للرجل اولاد غيرهم توسل اليهِ ان يبقي لهُ واحدًا منهم ليعينهُ على ضعفهِ وعجزهِ لانهُ كان فقيرًا جدًّا فاجابهُ داريوس قائلاً ما دام الامر كذلك يجب علينا ان نبقي لك اولادك الثلاثة ليعولوك في ضعفك ثم امر احد اتباعهِ بذبح اولاد ذلك الرجل المسكين وان ياتي برؤوسهم الى والدهم

وكان داريوس قد ارسل جيشًا جرارًا تحت قيادة داتيس وارتافرنيس لمحاربة اليونان وبعد وقائع وحروب شديدة انهزما اقبح هزيمة وفقد من عسكرهما نحو مائتي الف ولما بلغهُ خبر هذه الكسرة اشتد غضبهُ واخذ يجند الجنود ويجيش الجيوش ليقيم حربًا على اليونانيين وعلى المصريين الذين كانوا قد خامروا طاعتهُ واظهروا العصيان وبينما كان مهتمًّا بهذا الامر مرض ومات سنة ٤٨٠ ق م

وبعد موت داريوس خلفهُ ابنهُ زركسيس وهو الملك الخامس من ملوك فارس ومادي تبوأ تخت الملك عوض اخيهِ الاكبر ارطبزان وعند جلوسهِ على كرسي السلطنة ارسل جيشًا الى الديار المصرية فاخضعها وعاقب ارباب الفتنة عقابًا اليمًا ولما انقادت مصر لحكمهِ جهز جيشًا عرمرمًا مؤلفًا من مليونين من الخيالة والمشاة وزحف بنفسهِ الى محاربة اليونان ليتم مقصد ابيهِ الذي كان قد عوَّل عليهِ واصحب معهُ بوارج كثيرة العدد واذ كان لابد لهُ ان يجتاز بوغاز الدردنيل الفاصل بين اسيا واوروبا الذي يبلغ عرضهُ مسافة نصف ساعة تقريبًا امر بصف مراكبهِ على شكل جسر بين البرين وربط بعضها ببعض

لاجل مرور العساكر فهاجت الامواج وكسرتها فساء الملك زركسيس ذلك الامر وامر بضرب البحر لاجل عدم توقيره اوامره وبعد مشقات عظيمة وحروب شديدة اخضع اكثر مدن اليونانيين ما عدا سبارتا واثينا فانهما مع كل ضعفهما وقلة عساكرهما قاومتاه اشد مقاومة لان شعبهما كان من اشجع الناس . ولما اقترب زركسيس من ليكوستوموس الذي ترجمته فم الذئب وهو معبر ضيق بين الجبل والبحر وصم ان يعبره اعترضه ملك سبارتا المدعو ليونيداس بستة الاف مقاتل وحاربه وفتك بعسكره فتكًا عظيمًا وقتل منهم نحو سبعين الف نفر واذ كان عسكر الفرس كثير العدد لانهاية له خافت جموع اليونان من عاقبة الامر فصرفهم ليونيداس الى اماكنهم وبقي هو مع ثلثماية نفر ماسكًا راس ذلك المضيق المسمى ثرموبيلي واخيرًا هلك هو ومن معه ولم يسلم من جيشه الاَّ رجل واحد فقط فذهب الى سبارتا واخبر اهلها بما جرى على اصحابه

اما انتصارات زركسيس فلم تطل في بلاد اليونان فان اكثر مراكبه انكسرت في سلاميس وعساكره انهزمت في حصار مدينة بلاتيا فاضطر اخيرًا الى ان يرجع مع من بقي معه من الجيش الى بلاد فارس وعند وصوله قتله ارطبانيس رئيس حراسه وكان ذلك في سنة ٤٧٠ ق م

وبعد وفاة زركسيس تولى ابنه ارتكزركسيس ثم تولى بعده داريوس قدمانس ثم غيره من الملوك مما لا يسعنا ذكرهم في هذا المختصر وبقيت ملوكهم تتوارث الملك الواحد بعد الاخر الى سنة ٣٣٠ ق م عند ما قام اسكندر المكدوني في حكم الملك داريوس الثاني فحاربه واستظهر عليه وتغلب على جميع البلاد والاقاليم الخاضعة للفرس كاسيا الصغرى وصور ومصر وانتهى الحال بداريوس انه في بعض حروبه مع اسكندر انهزمت الفرس وقتل منها خلقٌ كثيرٌ وكان هو من جملة المنهزمين فاقتفى اسكندر اثره ليعلم خبره فوجده قتيلاً وكان قاتله رجلاً من اكابر قواده فحزن عليه اسكندر وتأسف على فقده

واقام لهُ مسلاّت شهيرة في جملة اماكن تذكارًا لهُ . وبعد وفاة اسكندر وقعت بلاد العجم في نصيب سلوقس احد قواد جيوش اسكندر وصارت بعدهُ في قبضة ذريتهِ الى ان نهض الفرثيون وطردوا اليونانيين من بلاد فارس ومادي وتولوا عليها نحو خمسماية سنة

الباب الخامس

في اكاسرة العجم

وفي سنة ٢٢٠ مسيحية وثب رجل من الاعجام يقال لهُ اردشير فهيج الاهالي وحارب الفرثيين وطردهم واستقل بالملكة وهو اول الطبقة الساسانية وراسها وهذه الطبقة هي الرابعة من ملوك الفرس المعروفين باكاسرة العجم واسم اردشير مركّب من كلمتين فارسيتين احداها إرْد بمعنى الغضب وثانيها شير اسم للاسد فسمي الملك بهذا المركّب ومعناهُ اسد الغضب

ثم تولى بعدهُ ابنهُ سابور وهو غير سابور ذي الاكتاف الذي هو تاسع الاكاسرة بعد اردشير واسمهُ بالفارسية شابور بالشين مركب من شاه مختصر بمعنى سلطان او ملك وبور بمعنى ولد يعني ولد السلطان فعربتهُ العرب بلفظ سابور بالسين المهملة . كان ملكًا عظيمًا شديد البأس كثير المغازي والغارات ذا سطوة قاهرة حارب الديار الشامية واخضعها وحاصر مدينة انطاكية وكان بها يومئذٍ ڤاليريانوس احد قياصرة رومية فاقتحمها عليهِ واسرهُ وسار بهِ الى بلادهِ وبقي في اسرهِ الى ان فدى نفسهُ باموالٍ كثيرة . واما سابور ذو الاكتاف فهو بعد سابور هذا بنحو اربعين سنة وانما سمي ذا الاكتاف

لانهُ لما حارب عرب الحجاز وظفر بهم كان كلما أسر اعرابيًا يثقب كتفهُ ويدخل فيهِ حبلاً ليقودهُ فسمي ذا الاكتاف وصار لقبًا عليهِ وكان قد حارب الرومانيين من زمن مكسيمينوس الثاني الى زمن طيودوسيوس الاكبر ونجح في اكثر حروبهِ معهم . ومما يدل على انتظام مملكة العجم وقوتها وشوكتها في ايامهِ انها استمرت منذ ولادتهِ الى زمن وفاتهِ مدة اثنتين وسبعين سنة ولم يحصل فيها فتن ولا نزاع ولا حروب

وتولى بعدهُ جملة من الملوك الى سنة ٥٨٠ للمسيح تقريبًا ومن هولاء الاكاسرة كسرى انوشروان وهو من اشهرهم واعظم ملوكهم كان ملكًا عادلاً عاقلاً مهيبًا محسنًا ومن كثرة عدلهِ وشفقتهِ على رعاياهُ من الظلم والعدوان امر بوضع سلسلة نافذة من سرايتهِ الى الطريق وجعل فيها اجراسًا فكان كل رجلٍ مظلوم ياتي ويحرك السلسلة فتدق الاجراس فيعلم بهِ ويامر باحضارهِ اليهِ وينصفهُ ولذلك كثر العدل والامان في ايامهِ . وهو الذي صادم الرومانيين واقام عليهم حروبًا كثيرة واستولى على اكثر ولاياتهم في اسيا فهابتهُ الملوك وهادوهُ بالهدايا النفيسة وكان قد ورد عليهِ رسول قيصر امبراطور الروم بهدايا وتحف ثمينة فنظر الى ابرانهِ وحسن بنائهِ فاندهش وتعجب وكان قد رأى فيهِ اعوجاجًا فسأل عن سبب ذلك فقال لهُ بعض الوزراء ان عجوزًا كان لها منزل بجانب هذا الاعوجاج فرغبها الملك في الثمن فابت بيعهُ ولم يغصبها عليهِ وبقي الاعوجاج من ذلك على ما ترى . وكانت مدة حكم كسرى انوشروان نحو اربعين سنة وقيل اكثر

ثم تولى بعدهُ ابنهُ هرمز وكان عاقلاً عادلاً كابيهِ ينصف الحقير من الشريف ولا يحابي بالوجوه وكان قد صنع صندوقًا وجعل فيهِ شقًا ليلقي المتظلم قصتهُ فيهِ وكان يختم قفل الصندوق بخاتمهِ لئلا تصل اليهِ ايدي وزرائهِ وكان الحجّاب ياخذون ذلك الصندوق في كل صباح ويلقونهُ على مفارق الطرق وينادون باعلى اصواتهم قائلين كل من لهُ دعوى او كلام يرفعهُ الى الملك

فليكتبهُ على رقعةٍ ويلقيهِ في هذا الصندوق من هذا الشق . وفي السنة العاشرة من ملكهِ زحف اليهِ طيباريوس قيصر في ثمانين الف فارس فخاف هرمز من عواقب الامر واحضر اليهِ قائدًا لهُ بملكة الري يقال لهُ بهرام وكان شجاعًا مقدامًا وبطلاً هامًا واعدَّهُ لقتال اعدائهِ فانتصر جند طيباريوس على جند فارس في جملة وقائع ثم تصالحوا . وكان بهرام المذكور قد اتخذ لهُ حزبًا واعوانًا من رجال المملكة حتى صار في صولة وسطوة عظيمة فخاف هرمز على ملكهِ من بهرام وحسب حسابهُ وجرى بينهما قتال وكان الجند من حزب بهرام وكان ابرويز بن هرمز يومئذٍ مطرودًا من ابيهِ مقيمًا باذربيجان فلما بلغهُ ضعف امر ابيهِ خاف من استيلاء بهرام على الملك فقصد اباهُ وامسكهُ وقلع عينيهِ ولبس التاج وجلس على سرير الملك وجرى بينهُ وبين بهرام عدة وقائع واخيرًا تغلب بهرام على اقطار المملكة ولبس التاج . واذ خاف ابرويز من ان بهرام يعيد والدهُ الاعمى ملكًا موقتًا الى ان يكون قد تمكن من الملك اتفق مع خواصهِ على قتل ابيهِ هرمز فخنقهُ وقصد ملك الروم موريكيوس مستنجدًا بهِ على بهرام ولما اجتمع بهِ واعلمهُ بواقعة الحال لامهُ قيصر على ما فعل بابيهِ اولاً وثانيًا ولكنهُ انف من ان يردهُ خائبًا فارسل لنجدتهِ جيشًا جرارًا ولم تزل الحرب بينهُ وبين بهرام ثلاث سنين متتابعة وانتهت بانتصار ابرويز على بهرام وعاد ملك الفرس الى ابرويز فانعم على عسكر الروم باموالٍ جزيلة ثم اعادهم الى بلادهم بعد اقامة اربع سنين . واستقرت لهُ بعد ذلك ولاية فارس ولكن الله قد انتقم منهُ على قتلهِ ابيهِ بتسليط ابنهِ شيرويه عليهِ فخلعهُ عن الاحكام وقتل جميع اخوتهِ بحضور ابيهِ ثم امر بهِ فالقي في جبٍّ عميق وعذبهُ بانواع العذابات الى ان مات

وفي سنة ٦٣٠ مسيحية تولى يزدجرد ملكًا وهو آخر ملوك الفرس وفي ايامهِ افتتحت العرب بلاد العجم وقتل يزدجرد في الحرب واستولى المسلمون على البلاد العجمية مدة طويلة كما سياتي تفصيل ذلك في الكلام على دول العرب

الباب السادس

في الكلام على شاهات العجم

وفي سنة ١٢٥٨ م دخلت التتر الى بلاد العجم وطردت دولة العرب منها وتولت مكانها عدة قرون . ثم في سنة ١٥٠٠ قام عليها ملوك من اهل فارس وتلقبوا بالشاهات اي السلاطين وكان اول هولاء الملوك الشاه اسماعيل الاول وهو من نسل العرب فتغلب على البلاد واستولى عليها ٢٢ سنة . ومن اعظم هولاء الملوك الشاه عباس تبوأ سرير المملكة ١٥٨٩ فحارب الاتراك وظفر بهم مرارًا عديدة ومنع البرتوكاليين من الاستيلاء على جزيرة اورموز في خليج العجم

ومن افضل ملوك هذه العائلة الشاه حسين الذي هو آخرهم وكان مع ادارته وحسن تصرفه قليل الحظ من رعاياه جلس على سرير الملك سنة ١٦٩٤ الا انه لم يطل زمانهُ حتى اضطر الى ان يتنازل عن كرسي الاحكام لخصم له يدعى محمودًا ولكنهُ قبل ان يخلع نفسهُ عن تخت المملكة نزل الى الاسواق حافيًا واخذ يطوف في شوارع اصبهان التي كانت يومئذٍ عاصمة البلاد وهو يصيح قائلاً لاتحزنوا ايها الناس على فراقي عنكم لان الشاه محمودًا هو اخبر مني وادرى في تدبير اموركم واصلاح شانكم لاسيما في ادارة الحروب وسياسة الاحكام . وكان اكثر سكان المدينة يمشون وراءهُ وهم يبكون ويتحجون على فراقهِ . ثم في سنة ١٧٣٥ قام كولي خان وتناوب كرسي المملكة وسمى نفسهُ نادرشاه وكان جبارًا عنيدًا ظالمًا غشومًا كثير الحروب والغارات وكان قد غزا الجهات الشمالية من بلاد الهند سنة ١٧٣٩ فتغلب عليها ونهبها وعاد منها بغنائم وافرة واموال متكاثرة وكان مبغضًا من اكثر رعاياهُ لكثرة ظلمهِ وجورهِ فوثب

عليهِ يومًا جماعةٌ من قومهِ وقتلوهُ وكانت مدة حكمهِ سبع عشرة سنة . واتفق في ايام كريم وكيل شاه انهُ حدث هياج واضطراب في المملكة واستمرت الحروب بين الاهالي نحو ١٥ سنة وذلك من سنة ١٧٧٩ الى سنة ١٧٩٤

ثم تولى زمام المملكة بعدهُ اغا محمد خان ثم فتح الله شاه ثم محمد شاه ثم ابنهُ نصر الدين شاه وهو الملك الحالي صعد على سرير السلطنة سنة ١٨٤٨ مسيحية وهو من افاضل ملوك العجم يوصف بحسن السياسة والتدبير والمحبة لرعاياهُ وقد انشأ عدة مدارس كلية لدرس العلوم والفنون واكتساب المعارف والاداب لنجاح الاهالي وفي سنة ١٨٦٣ اذن بادخال السلك البرقي اي التلغراف الى اقطار بلادهِ

اما عاصمة دولة ايران الحالية فتدعى طهران وهي كرسي المملكة والملك قصرٌ عظيمٌ في مدينة اصبهان يقال لهُ قصر الاربعين عمودًا وكل عمود منها قائم على اربعة سباع من نفيس المرمر وفيهِ من النقش البديع وانواع التحف والصور المزخرفة ما يدهش النظر ويذهل العقل

وهذه البلاد يحدها شمالاً بحر الخزر والممالك الروسية وبلاد التتر المستقلة وشرقًا افغانستان وبلوخستان وجنوبًا خليج العجم وخليج اومان وغربًا تركيا في اسيا وعدد اهلها نحو ١٤ مليونًا

وقد فاق اهل هذهِ المملكة على ما سواهم من الناس في نسج الحرير والصوف كالمخمل وشالات الكشمير والبسط والطنافس وفيها ابنية فاخرة وقصور عظيمة شاهقة ولكنها لا تقاس بتلك الابنية الهائلة التي كانت في ايام الملك زركسيس . وليس لاهل العجم في هذه الايام ميلٌ الى الحروب وسفك الدماء كما جرت لهم العادة في الايام السابقة وذلك لانعكافهم على المطالعات وانشغافهم بسرد القصص والاخبار المفيدة المكتوبة من عصور قديمة وهي في غاية الظرف والحسن ولهم ايضًا ولوع وذوق في نظم الشعر والنثر وقد اشتهر منهم في هذه البلاد جملة من الشعراء كالحافظ الشيرازي والسعدي والفردوسي وغيرهم

الفصل السادس

في مملكة الصين

الباب الاول

في وصف بلاد الصين ومدنها واهلها وعوائدها

هذه المملكة يحدها شمالاً بلاد سيبيريا اي روسيا في اسيا وشرقًا الاوقيانوس الباسيفيكي وجنوبًا بحر الصين والهند وغربًا افغانستان وبلاد التتر المستقلة . وهي بلاد واسعة جدًّا ذات املاك وافرة يتبعها بلاد كثيرة من بلاد المغول والمانشو وغيرها وعدد اهلها ٤٤٦ مليونًا منها ٤٣٠ في نفس سلطنة الصين و٢٦ في البلاد المجاورة مثل منشوريه وبلاد المغول وثيبت وغيرها التابعة السلطنة الصينية . وللصينيين شهرة عظيمة في بعض الصنائع كنسج الحرير والقطن والكتان ولا سيما حفر العاج وعمل الخزف المعروف بالصيني وغير ذلك من الانواع

اما مدن بلاد الصين فمنها نانكين وكانت سابقًا عاصمة البلاد واما في هذه الايام فقد انحطت عن عظمتها القديمة لانتقال تخت الملك منها وعدد اهلها الآن نحو خمس مئة الف نسمة ومن غريب ابنيتها البرج العظيم الذي انشاهُ بعض الملوك في مدة ١٩ سنة واتقنهُ غاية الاتقان وهو مبنيٌّ من الاجرّ ومحيط اسفلهِ مئة وعشرون قدمًا يعلوهُ تسع طبقات شاهقة ولهُ من داخلهِ

درج على شكل لولب يصعد فيهِ الى السطوح وخارج البرج ملبس بالخزف الصيني الملون . ثم مدينة باكين وهي قاعدة المملكة ودار اقامة السلاطين وعدد سكانها نحو مليونين وهي على شكلٍ مربع مستطيل يحيطها سورٌ ارتفاعهُ نحو مئة قدم وعرضهُ ثلثون قدماً بحيث تدور فوقهُ الحراس وهم راكبون خيولهم وفي جوانب هذا السور اثنا عشر باباً تعلوها ابراجٌ لاقامة الحراس والمحافظين . وتنقسم هذه المدينة الى قسمين جنوبي وشمالي اما القسم الجنوبي ففيهِ اكثر مساكن العامة واما الشمالي ففيهِ بلاط الملك وبساتينها وجنائنها التي هي في غاية البهجة وفي هذا القسم ايضاً كثيرٌ من البحيرات الصناعية والازهار البهية والاشجار المختلفة . ومن مدنها ايضاً مدينة سنغنغو وهي بعد باكين في الاتساع والحسن . وفي سنة ١٦٨٥ من الميلاد عثر بعض الاهالي بالقرب منها على لوحٍ من المرمر تحت الارض مكتوبٌ عليهِ بالخط الصيني كلمات سريانية فوقها صورة صليب فاجتهد العلماء في البحث عن معرفة هذه الكلمات فوجدوها مشتملة على اثنتين وستين علامة منقوشة بالحروف الصينية فتاملوها فاذا هي عبارةٌ عن رسالة تتضمن اصول دين النصرانية وعدة مسائل تتعلق بقوانين القسوس واسماء الملوك الذين كانوا سبباً في نشر هذه الديانة التي اظهرها في تلك الجهة دعاةٌ من قسوس النساطرة سنة ٦٣ للمسيح وكانوا قد قصدوا هذه المملكة من بلاد العجم والشام وكان لهولاء الدعاة في بلاد الصين عدَّة كنائس . ثم مدينة كنتون وهي بالقرب من البحر يسكنها قناصل الدول الاجنبية وعدد اهلها نحو مليون نفس

واهل الصين بوجه الاجمال سود الشعور صفر الالوان صغار العيون واكثرهم يلبسون القصة طويلة اشبه شيئاً بالاتب ويتمنطقون باحزمة حريرية وينقلون سكاكين وخناجر في احزمتهم وهم على جانب عظيم من الغش والخداع ولهم من العوائد والاصطلاحات الذميمة القبيحة ما تأنف منها السماع . منها انهُ اذا كان لاحد الوالدين عدة اولاد لا يقدر ان يقوم بمعاشهم يجوز لهُ ان يلقيهم

في النهر ليتخلص منهم ولا يعترضهُ احد . ومنها انهم ياكلون لحوم الفار والجرذان

مبيع الفار والجرذان

ويبيعون الكلاب المائتة جهرًا في الاسواق . ومن عوائدهم ايضًا انهُ اذا اراد الرجل منهم ان يتزوج بصبية يرسل رسولاً من قبلهِ ليخاطب والديها بذلك فاذا قبلا يفحصون عن ساعة ولادتها وولادتهِ ليعرفوا في اي يومٍ وفي اية ساعة كانت ولادتهما لمعرفة طالعهما فاذا وجدوا ان كل شيء موافق يرسل اليها

الخطيب بعض جواهر نفيسة على سبيل الخطبة حتى اذا كان يوم العرس ينصبون خيمة قدام دار العروس ويبذرون ارضها بالقمح ويدعون الاصحاب والمعارف ويجلس اهلها بجانبها بحسب رتبهم ومقامهم ثم ينهض اهل العروس جميعًا ويذهبون بهم مع العروس الى بيت العريس ويرشونهم في اثناء الطريق بالقمح والشعير وعند وصولهم يجلسون العروس بجانب العريس فيقوم ذوو العريس ويقدمون لهم الشاي والعرق والحلويات وعند انصرافهم يقدمون الهدايا للعريس والعروس على سبيل النقوط .ومن عوائدهم انهم يحلقون شعور رؤوسهم ويبقون منهُ خصلة في اعلاها فيجدلونها ويرخونها على ظهورهم . ومنها انهم يستظرفون صغر ارجل النساء ولذلك يعلون قوالب من حديد ويضعون

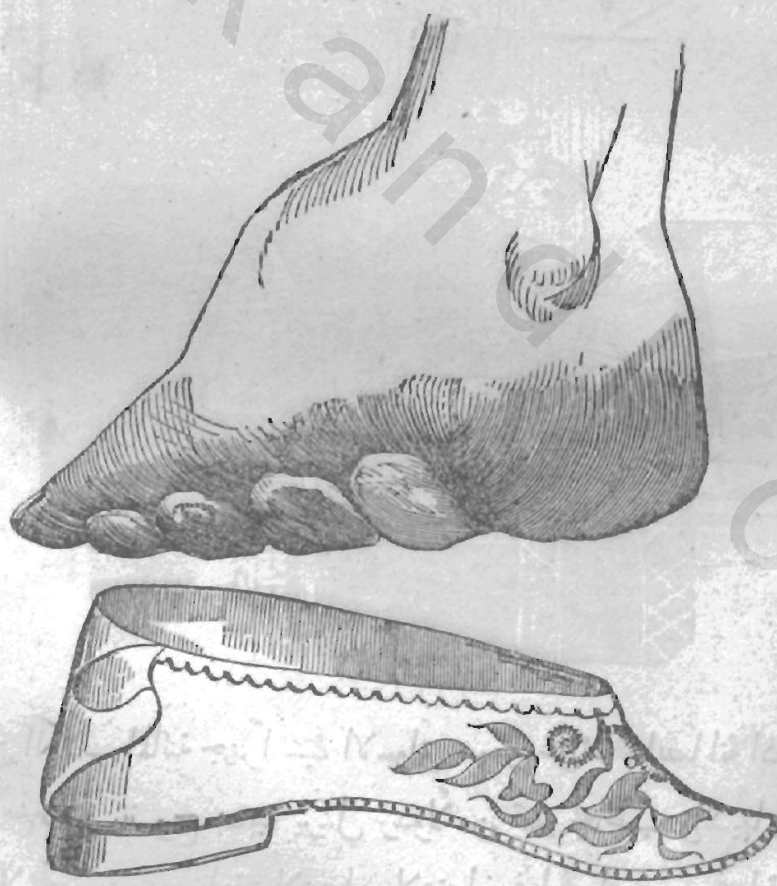

فيها ارجل البنات في صغرهنّ حتى اذا كبرنَ تكون ارجلهنّ صغيرة

وفي هذه المملكة كثير من الجبال الشاهقة والانهر الكبيرة المشهورة كنهر تاكيان الذي يصب في البحر الاصفر وهو يعد من اعظم انهرها يبلغ طوله ثلثة الاف ميل وفيهِ تجري سفن كبيرة وصغيرة لخدمة النقل . وفيها كثير من الترع التي توصل المياه الى داخل البلاد لاجل سقي المزروعات ونقل الحاصلات من جهة الى اخرى . وفيها جملة معادن منها الجص واللازورد يلونون بهِ الصيني والشب والبلور والمغناطيس والزيبق والفضة . وفيها الماس والزمرد والياقوت وغيرها من الحجارة الكريمة

ومن اشجارها الكافور وعود الند الذي يضاهي في الصورة والارتفاع شجر الزيتون ثم الشاي وهو من اشهر نباتها وافضلهِ ومن العجب انهم يقطفونهُ ثلاث مرات في كل سنة وكيفية ذلك انهم يقطفون اولاً اغصانهُ ويضعونها بقرب نار خفيفة حتى تجف قليلاً ثم يلفون ورقهُ ويجعلونهُ في صناديقٍ من رصاص ويرسلونهُ الى اوروبا وباقي الجهات . وقد بلغ موخرًا معدل ما يرسل منهُ الى الخارج وما ينقطع داخل البلاد سنويًا الفَي مليون اقة تقريبًا . ومن حاصلات الصين الثمينة الحرير فانهم يعتنون بتربية دودهِ وهم اول من اكتشفوهُ ومن عندهم خرج الى باقي الاماكن . وللصينيين اختراعات كثيرة لم تعرف في البلاد الافرنجية الاَّ بعد ازمنة طويلة من وقت اختراعها مثل عمل القرطاس والخزف والمطابع والبارود وغير ذلك مما يوجب لهم الافتخار والمدح . وايراد السلطنة يبلغ من ٦٠ الى ٧٠ مليون ليرة انكليزية في السنة واكثرهُ يوخذ عينًا من حاصلات البلاد

اما لغاتهم فهي من اقدم اللغات وقلما تغيرت عن حالتها الاصلية كما يحدث غالبًا في اكثر اللغات . واما كتابتهم فليس لهم حروف معتمدة يكتبون بها كما في سائر اللغات وانما لهم علامات واشارات اصطلحوا عليها واذا كتبوا ابتدأوا بالسطر من فوق ونزلوا بهِ الى اسفل ناحية صدورهم خلافًا لباقي الكتابات

واما ديانتهم فهي الوثنية واعظمها البوذية . ومن اصطلاحات كهنتهم في

الاحتفالات الدينية انهم يلبسون بدلات مختلفة ثم يوقدون الشموع ويعلقون

صنم صيني يستشيرونه قبل شروعهم في اعمال مهمة

في اعناقهم المسابح ويحملون بايديهم الاجراس ويطوفون في المساجد والهياكل

والبعض منهم يمتنعون عن الزواج ويسكنون في صوامع منفردة عن الناس وعندهم كثير من القصص والتواريخ التي لا يوثق بها ولا يليق بشان المؤرخ ذكرها واعتمادها . ومن عوائدهم ايضًا انهُ مباحٌ لهم ان يتخذوا لانفسهم ما شاءوا من النساء بشرط ان لا يكون للرجل اكثر من زوجة شرعية واما البقية فيعتبرون بمنزلة خادمات

الباب الثاني

في تاريخ مملكة الصين

ان هذه المملكة من اقدم ممالك الارض واعظمها وقد اختلف المحققون وارباب التاريخ في من اسسها فزعم الاكثرون انهُ فوهي الذي يظنونهُ نوحًا . وما يؤيد قدميتها كثرة ملوكها وقد عدَّ المؤرخون دولها الى هذا اليوم فكانت اثنتين وعشرين دولة حكمت في مدة اربعة الاف سنة . واما تاريخها فيمتد من سنة ٢٢٠٠ ق م وهو بالحقيقة من اسقم تواريخ الدنيا واظلمها لا يعتمد عليهِ نظرًا لما يتضمنهُ من الخرافات والحكايات الغريبة البعيدة عن التصديق حتى لو شرع احد ان يستوفيهُ على وجه التفصيل لاستلزم عدة مجلدات كبيرة مع انهُ ليس بين اخبار ملوكها القدماء شيءٌ يستحق الذكر الَّا الى زمن دولة تشاو التي استولت على السلطنة من سنة ١١٠٠ ق م الى سنة ٢٤٩ ق م . ومن ملوكها الامبراطور تشاوس جلس على الكرسي قبل المسيح بنحو الف سنة وكان مغرمًا بالصيد والقنص وكان يصرف اكثر ايامهِ في الجولان بين الغياض والبساتين حتى انهُ كان اذا طارد غزالًا او ارنبًا يتبعهُ ولا يميل عنهُ حتى يصيدهُ . وكان كثيرًا ما يدوس الاراضي المزروعة مع حواشيهِ وخدمهِ وقت الصيد وهو

غير مبالٍ بالاضرار الناتجة من ذلك حتى مقتهُ شعبهُ وازدروا بهِ واضمر وزراء دولتهِ التخلص من رياستهِ بقتلهِ فحرضوا بعض الاتباع على ذلك . وكان في تلك النواحي نهرٌ عظيم من عادة الملك ان يعبرهُ في طلب الصيد فاعدوا لهُ في بعض الايام قاربًا مكسورًا من قعرهِ ووضعوهُ لهُ على الشاطي فلما حضر الملك ورآهُ استحسنهُ ثم نزل بهِ هو واتباعهُ ولما صاروا في نصف النهر انفكت الواح القارب فسقط في الماء وغرق الملك ومن معهُ

وفي زمن تملك هذه الدولة ظهر كونفوشيوس العالم الشهير الذي كتب جملة تآليف في الدين والاداب والسياسة لم تزل موجودة الى هذا اليوم ويعتبرها الصينيون اعتبارًا عظيمًا كاساس ديانتهم وآدابهم . ولولاها لما علم عند المتاخرين شيء من تاريخ الصين القديم . وكانت ولادة هذا الشخص سنة ٥٥٠ ق م تقريبًا من عائلة معتبرة فانصب على العلوم من صغرهِ ولما بلغ سن الاربع والعشرين سنة انعكف على اصلاح عوائد بلادهِ فاخذ يجول بين ولايات السلطنة وينذر الناس بتعاليمهِ فالتصق بهِ كثيرون وذاع صيتهُ بين الجميع حتى دعاهُ ملك لو وسلمهُ وزارة مملكتهِ فاصلح شرائعها واصطلاحاتها وانى فيها اسباب التجارة والزراعة ولكن بما ان الملك كان مغرمًا باللاهي واللذات نفر اخيرًا من كونفوشيوس ولم يثبت في اتباع مشوراتهِ الحكيمة فاضطر هذا الفيلسوف ان يترك دار الملك ويرجع الى اعتزالهِ مواظبًا على الانذار والتعليم والتاليف . ومع كل احترام الناس لهُ كان لين الجانب وديعًا ومتواضعًا الى الدرجة القصوى غير محب المال . وكان كونفوشيوس قريبًا من عصر هيرودتوس ويحسبهما العلماء ابوَي التاريخ ولكن الاكثرين يفضلون الاول على الثاني لانهُ ما عدا كتاباتهِ التاريخية ترك لبلادهِ تعاليم ادبيَّة اتت بفوائد كثيرة من وقت مماتهِ الى الآن

ومن ملوك دولة تسِنّ التي خلفت الدولة السالف ذكرها من سنة ٢٤٩ الى سنة ٢٠٥ ق م الملك سيهوانكتي وعند جلوسهِ على تخت المملكة شرع في بناء

سور عظيم حول البلاد ليقيها من هجوم التتر ولم يزل السور الى الآن يبلغ ارتفاعهُ ٢٠ ذراعًا وعرضهُ تسع اذرع وهو يشغل مسافة الف واربعماية ميل وعند فراغهِ من هذا السور ازداد تعجبًا بنفسهِ وافتخر على مَن تقدمهُ من الملوك والسلاطين فاخذ يعامل الناس بالقساوة والجبروت . واذ كان يريد اطفاء خبر الاولين ومن سلفهُ من الملوك ويُظهر للمتاخرين انهُ اول سلاطين الصين لم يرَ سبيلاً الى ذلك الاَّ اعدام المورخين واتلاف قيود المملكة فامر احد الايام بدفن اربع مئة رجل من العلماء وهم في قيد الحياة ثم امر بحرق سائر الكتب والتواريخ التي في مكاتب المملكة . وبعد موت هذا الملك تولى ابنهُ مكانهُ وبموتهِ انقرضت دولتهم

ثم قامت دولة اخرى تعرف بدولة هان وذلك من سنة ٢٠١ ق م الى سنة ٢٢٤ للميلاد وفي كل مدة تملكهم لم يحصل للبلاد راحة من غزوات التتر المتكررة . ومن ملوك هذه الدولة الامبراطور فاني وقال البعض انهُ كوانك كان على غاية من الخفة والطيش يميل الى الملاهي والطرب منعكفًا على اللذات والسكر ولذلك كان يكره الموت ويود الحياة فاخذ يبحث ويفتش عما يدفع عنهُ كاس الموت ولكنهُ بعد ان صرف زمنًا طويلاً في الامتحانات المحالية كتركيب المعاجين المقوية واستخراج المشروبات المنعشة ادركتهُ المنية فخاب سعيهُ واخطأهُ الامل قبل اتمام العمل

ثم خلفهُ ملك آخر كان مغرمًا بمطالعة التواريخ والاخبار ولذلك اهمل مصالح المملكة وانعكف مواظبًا على الدرس والقراءة وكان وزيرهُ يبغضهُ ويتمنى هلاكهُ فاغتنم الفرصة وهيج عليهِ الشعب ليفتكوا بهِ فلما سمع الملك اصوات العصاة وهياجهم بادر في الحال وتقلد سلاحهُ وخرج من المكتبة ليقف على حقيقة الخبر فوجد اكثر الشعب قائمين عليهِ يريدون هلاكهُ فعلم ان سبب ذلك اشتغالهُ عن معاطاة الاحكام بالمطالعات الكثيرة ولما رأى نفسهُ عرضةً للهلاك وانهُ لم يبقَ امكان للمدافعة ارتد الى مكتبتهِ واضرم بها النار فاحترقت وكان عددها

نحو مئة واربعين الف مجلد ثم هجم عليهِ الشعب فقتلوهُ

وفي سنة ٦١٧ للمسيح جلس ملك آخر يدعى سيكوين وكان قد بنى لنفسهِ قصرًا عظيمًا من ابهج القصور المزخرفة واتقنهُ اتقانًا خارجًا عن حدّ العادة وطلى حيطانهُ بماء الذهب وفرشهُ بانواع الفرش النفيسة والامتعة الفاخرة الزاهية فلما مات دخل ابنهُ الى هذا القصر فدهش من فرط حسنهِ وجمالهِ وقال في نفسهِ ان هذا القصر مما يفسد عقول الملوك ويزيدهم تكبرًا وفخفخةً فامر باحراقهِ

وجلس سنة ١٠٠٠ مسيحية على كرسي المملكة ملك شهير بالمعارف والاداب يدعى شوانكتسون وكان على جانب عظيم من الزهد والوداعة وكمال الاستقامة وكان ذا حكمة وفراسة مطبوعًا على مكارم الاخلاق حريصًا ساهرًا على جلب الراحة للبلاد والعباد فاحبهُ رعاياهُ ومالوا اليهِ لتصرفاتهِ وحسن سلوكهِ ومن جملة مزاياهُ الغريبة انهُ كان ينام على بساط الارض بلا مثال ولا دثارٍ ويربط في عنقهِ جرسًا حتى اذا تحول من جهة الى جهة وهو مستغرقٌ في نومهِ يستيقظ برنين الجرس معتبرًا ذلك الوقت وقتًا مناسبًا لقيامهِ من النوم

وسنة ١٢١٠ للمسيح زحف جنكيز خان ملك التتر والمغول بجيشٍ عظيم على هذه المملكة وافتتحها بعد وقائع متعددة وهجماتٍ هائلة واستولى على جانب عظيم منها وقام بعدهُ ابن ابنهِ قوبلاي خان فاكمل استفتاح البلاد واسّس مدينة باكين وسمى نفسهُ خان الصين الكبير واستمرت البلاد في ايدي ذريتهِ الى سنة ١٣٦٨ حين استخلصتها منهم العائلة المعروفة بدولة مينك . وكانت احكام التتر في كل مدة استيلائهم على الصين قاسية جدًا ومعاملة المغول بربرية لم تحملها الاهالي الاَّ بكربٍ شديد وقيل انهُ في مدينة واحدة نهض مرةً ٤٠ الف نفس من اهاليها واماتوا انفسهم بايديهم بغية التخلص من جور ظالميهم . وفي مدة تسلط هذه الدولة دخل البورتوغاليون اولاً الى الصين وذلك سنة ١٥١٦ وفتحوا الباب لدخول باقي الدول الافرنجية ثم تبعهم الفلمنكيون سنة ١٦٢٤ ثم الانكليز في ذلك القرن عينهِ ثم المسكوب ثم الفرنساويون والاميركانيون

ولكنهم لم ياخذوا مركزًا ثابتًا في تلك البلاد نظرًا لبغض الاهالي مخالطة الاجانب . ومن سلاطين هذه الدولة الامبراطور شنكنا جلس على سرير الملك سنة ١٥٢٢ وفي ايامهِ ظهر معدنٌ من الحجارة الكريمة في تلك البلاد فقصدهُ الناس من جميع النواحي واخذوا يشتغلون بحفرهِ وتقطيعهِ وكان احد الناس قد جاء الى الملك ذات يوم ببعض فصوص ثمينة من ذلك المعدن فلما شاهدها التفت الى من حولهُ من الناس واراهم اياها ثم صاح عليهم باعلى صوتهِ قائلاً لهم أتظنون ايها الناس ان هذه الحجارة كريمة قالوا نعم انها كريمة ونفيسة قال اذا كان الامر كما تزعمون فلا بد ان يكون لها نتائج مفيدة فاخبروني اذًا ما هي فوائدها أتستطيع ان تشبع جائعًا او تكسو عريانًا ثم امر بتعطيل ذلك المعدن وردمهِ وان يشغل اولئك الناس في عملٍ آخر اهم وانفع . فدام تسلط هذه الدولة الى سنة ١٦٤٥ حين طردتها قبيلةٌ من التتر المانشو المعروفة بدولة تانسينك وهي الباقية الى ايامنا هذه . ومن ملوكها الامبراطور كنكهي من اعظم ولاة الصين سطوة وشوكة وفي ايامهِ دخلت الديانة النصرانية الى البلاد بواسطة مرسلين يسوعيين واذ كان يميل اليها اصدر امرًا ملكيًا سنة ١٦٩٢ يمنح بهِ معلميها جملة امتيازات . وقد قرب اليهِ احد هولاء الاباء وجعلهُ مستشارًا لهُ فكان نفوذهُ عظيمًا في البلاد . واجتهد اليسوعيون في تهذيب الناس وتعليمهم ونجحوا نجاحًا عظيمًا في وقت وجيز والعالم مديون لهم لاجل معرفة احوال الصين الداخلية اذ كانت قبل ذلك مجهولةً وبعد توفي كنكهي سنة ١٧٢٢ خلفهُ ابنهُ يون شينك وكان اذاك صغير السن فتسلم زمام السلطنة اربعة وكلاء وفي مدة وكالتهم سنوا سنةً هي ان يمنع الخصيان المتوجين حراسة الحرم من الارتقاء والتوصل الى وظيفة من وظائف البلاد وكانوا قبل ذلك الوقت يرتقون الى اعلى المناصب ونقشوا تلك السنة على الواح من حديد وزن كل منها نحو اربع مئة اقة والى الان يتمسك بها كل ولاة الصين اذ بواسطتها حصل من ذاك الوقت السلام والراحة في كل السلطنة . ولما بلغ يون شينك المذكور

سن البلوغ واستلم زمام الاحكام لم يعامل اليسوعيين كمعاملة ابيهِ ولاسباب غير معلومة مقتهم وابعدهم عنهُ ثم نفاهم من العاصمة اولاً الى كنتون ثم الى مكاو ففقدت كل نتائج اتعابهم . وفي ايامهِ حدث زلزلة عظيمة في بلاد الصين لم يسمع بمثلها منذ خليقة العالم فهدمت اكثر بيوت باكين ومات بها نحو مئة الف نسمة وشمل الخراب والموت باقي الحدود المجاورة

ثم خلف يون شينك الامبراطور كيان لونك وكان سلطانًا عظيمًا وجاذقًا حكيمًا يود الاجانب ويميل اليهم اكثر من سلفائهِ وبعد موتهِ جلس ابنهُ مكانهُ واذ كان غير اهلٍ للاحكام خلع نفسهُ عن كرسي السلطنة واقام ابنهُ تاوكوانك مكانهُ سنة ١٨٢٠ وكانت البلاد في ايامهِ بلا راحة من جرى الثورات الداخلية والاضطرابات الخارجية ولاسيما حرب الانكليز سنة ١٨٤٠ المعروفة بحرب الافيون . وكان السبب في ذلك ان الحكم الصيني منع ادخال هذا الصنف الى بلادهِ واصدر امرًا جازمًا سنة ١٨٣٩ بمنع الاتجار بهِ اما الافرنج فلم يكونوا يعتبرون هذا التنبيه بل استمروا يتعاطون هذه التجارة خفية ولما اشتهر امرهم عند الحكومة ارسلت في الحال معتمدين من باكين الى مدينة كنتون ووكلت اليهم استعمال ما يلزم لتبطيل تلك التجارة فالقوا القبض حالاً على رجلين من ابناء البلاد ممن وقعت عليهم الشبهة في تهريب الافيون وقتلوهما بحضور الافرنج ثم احاطوا بالمنازل الافرنجية وهجموا عليها دفعةً واحدة واخذوا منها ٢٠ الف صندوق من الصنف المذكور . فهذه الوسائط جعلت تجارة الافيون تحصر في الفرَض البحرية حيث ترسي المراكب الحربية ولكن اذ كانت حكومة الصين متشبثة باتمام مقاصدها لم تغفل عن مراقبة اعمال تجار الافرنج واستمرت على مقاومتهم لمنع جلب الافيون الى الاقطار الصينية فوقع بينها وبين الافرنج لذلك معركتان في نهر كنتون اشهرها بين بارجتين انكليزيتين وبين ٢٩ مركبًا صينيًا تحت رياسة الاميرال كوان فكانت الدائرة على الصينيين فانسحبوا بعد ما حرق مركبٌ من بوارجهم وغرق منها عدة سفن فعظم ذلك

الامر على مملكة الصين واصدرت امرًا بابطال كل معاملة تجارية مع انكلترا وسعت في احراق البوارج الانكليزية وهي راسية في ميناها فالتزم حينئذٍ رئيسها ان يلتجئ الى قوة الاسلحة واشهر الحرب على الصينيين واحاط بمدينة كنتون بالمراكب والعساكر وضايقها فاضطر الامبراطور عند ذلك ان يصرف ذلك المشكل بتأدية ٦ ملايين من الريالات كتضمين على ما تكبدوهُ من الخسائر في اثناء الحرب وتنازل لهم عن جزيرة هون كونك وتعهد بارجاع المعاملات التجارية بين الامتين كما كانت سابقًا . ولكن اذ لم يفِ الامبراطور بهذه العهود عاجلًا اضطرت انكلترا ان تلزمهُ جبرًا على اجرائها فارسلت عليهِ البوارج ثانيةً تحت قيادة السار هنري بوتنجر سنة ١٨٤١ فضرب موانيها واستولى على اكثرها فخاف الامبراطور من عواقب الامر وعقد صلحًا مع دولة انكلترا في السنة التالية تحت شروط معلومة وهي ان الدولتين تكونان في صلحٍ وسلام مدى الدوام وان سلطنة الصين تؤدي للانكليز ٢١ مليون ريال في مدة اربع سنوات وان موانيَ كنتون وآموي وفوشو ونينكبو وشنغاي تكون مفتوحة للتجارة الانكليزية وينصب فيها قناصل . وان جزيرة هون كونك تعطى عطاء مؤبدًا الى جلالةِ الملكة فيكتوريا وخلفائها من بعدها وان المكاتبات بين الدولتين تكون على نسق المساواة

وسنة ١٨٥٠ توفي تاوكوانك المذكور وجلس مكانهُ ابنهُ هيان فونك فتواني عن القيام بحق العهود المذكورة وحاول من جهة حق دخول الانكليز الى داخل مدينة كنتون فادّى ذلك الى مناظرات عديدة بين الطرفين استمرت الى سنة ١٨٥٧ حينما وقعت حادثة السفينة الانكليزية المسماة ارو اذ هاجمها بعض ضباط الصين ومزقوا رايتها وقبضوا على جانب من رجالها ظلمًا وعدوانًا ورفض الامبراطور بعد ذلك اعطاء الترضية للانكليز عن هذا الفعل الذميم فالتزمت انكلترا ان تشهر حربًا على الصين مرة ثانية واذ كانت صوالح فرانسا التجارية وقتئذٍ ومحاماتها عن الاكليروس الكاثوليكي في تلك البلاد تستدعيان المداخلة اتحدت هاتان الدولتان وارسلتا قوة بحرية وبرية

تحت رياسة البارون كرو من قبل فرانسا واللورد الجين من قبل انكلترا وذلك سنة ١٨٥٨ وبعد دخولهم الى تيانتسين قهراً وهدمهم قلع مدينة تاكو التي على فم نهر يهو عقدوا مع حكومة الصين معاهدة تشتمل على ٥٦ بنداً منها ان يكون لسفراء فرانسا وانكلترا حق السكن في مدينة پاكين وان لا يكون مانع لجولان رعاياهم في كل اقطار السلطنة وتخصص تسع مدن غير المدائن التي كانت تخصصت بالمعاهدة الاولى لتكون موانيها مفتوحة لتجارتهم وان لا يصير ادنى تعرض للديانة المسيحية ولا لبناء الكنائس او البيوت وغير ذلك من الشروط . فلما ثبتت الحكومة الانكليزية تلك المعاهدة وكان اخو اللورد الجين ذاهباً بها الى پاكين سنة ١٨٥٩ ليستبدلها بالنسخة الصينية وجد ان الحكومة حصنت قلاع مدينة تاكو واقامت ايضاً حواجز لمنع مرور المراكب من فم النهر . وبينما كانت المراكب الانكليزية تريد ان تغتصب الدخول الى النهر اطلق الصينيون عليها النار من القلاع وضروا بها ضرراً جسيماً فعند ذلك وافاهم اللورد الجين والبارون كرو مرةً ثانية سنة ١٨٦٠ بمراكب كثيرة واغتصبوا الدخول في النهر المذكور بعد ما هدموا الحصون الحامية ودخلوا منتصرين الى مدينة پاكين وحرقوا قصر الملك الصيفي وعقدوا شروط الصلح وحصل اللورد الجين على تثبيت المعاهدة المار ذكرها . اما الامبراطور هيان فونك فانهُ هرب الى مانشوريا وهناك توفي بعد سنة وهو في سن الثلاثين

ثم خلف هيان فونك الامبراطور الحالي تشي سيانك ومعناهُ المُسعد جلس في ٢٢ آب سنة ١٨٦٢ وهو في سن الثلاث عشرة وفي ايامهِ تمكنت المحبة والالفة بينهُ وبين الدول الافرنجية وجعلوا بينهم روابط ومعاهدات باقامة السفراء والنواب بين الطرفين ولذلك ترى الآن سفراء الممالك الاوروبية ووكلاءها منتشرين في اكثر المدن الصينية ولا سيما في الموانئ البحرية ولا بد ان الصينيين يرون قريباً فوائد هذا التغيير لانفسهم ويجتنون بهذه الواسطة اثمار الارباح المادية والادبية الناتجة عن هذا الاختلاط

الفصل السابع

في تاريخ العرب

الباب الاول

في جغرافية بلاد العرب

هذه البلاد يحدها شمالاً فلسطين وسورية وشرقًا العراق والجزيرة وخليج العجم . وجنوبًا بحر الهند . وغربًا بوغاز باب المندب والبحر الاحمر وبوغاز السويس . واهلها اثنا عشر مليونًا . وهي خمسة اقسام اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة

اما بلاد اليمن فتنقسم الى خمسة اقسام وهي حضرموت وشحر ومهرة وعمان ونجران . ومن اشهر مدنها مدينة صنعاء وهي قصبة البلاد ودار الامامة وكانت كرسي ملوك اليمن في الازمنة السالفة وهي ذات بساتين واشجار كثيرة وبها اثمار لذيذة خصوصًا العنب وبقرب صنعاء معادن فحم الحجر . ومن مدن اليمن مدينة عدن ونجران وزُبيد ومدينة مخا وهي فرضة مشهورة على شاطي البحر الاحمر ومحط تجارة اليمن وعدد اهلها ١٨٠٠٠ ومنها يجلب البن الذي تنسبهُ العامة الى مكة ويقولون لهُ الحجازي ثم مدينة مارب وغير ذلك من المدن

واما الحجاز فهو ما يلي البحر الاحمر من تهامة وسمي حجازًا لانهُ حاجزٌ بين نجد وتهامة . ومن مدنها مكة وجدة والمدينة وفيهِ الطائف الواقع في شرقي مكة وهو ابرد اقليم واجود مكان في الحجاز كثير الفواكه والبساتين وفيهِ عيون

وجداول كثيرة . وفي جبال الحجاز عدة ولايات صغيرة لا يعيش سكانها في الخيام كباقي عرب السهول بل لهم مدن وقرى مبنية بالحجارة وهم يدافعون عن انفسهم بحصونٍ وقلاعٍ صغيرة ومن هذه الولايات ولاية خيبر وهي على الشمال الشرقي من المدينة واهلها يهود مستقلون بانفسهم

واما تهامة فموقعها على شط البحر الاحمر بين اليمن جنوباً والحجاز شمالاً

واما نجد فهي ما يتصل بالشام شمالاً والعراق شرقاً والحجاز غرباً واليمامة جنوباً وهي ارض واسعة عظيمة كثيرة الجبال والمدن والقرى مشحونة بالاراضي الالتزامية حتى ان اكثر مدنها قد تكون التزام شيخ يحكمها ويتصرف باهلها كما يشاء وارضها مخصبة الى الغاية يخرج منها سائر الفواكه خصوصاً التمر وبها تربّى الخيول العظيمة ومن مدنها رياض وهي قصبة البلاد ذات سور وجنائن وبندر يجتمع اليها التجار من سائر الجهات للبيع والشراء وسكانها على اشد ما يكون من التعصب في المذهب الوهابي . ثم مدينة ايانا وهي التي نشا بها محمد بن عبد الوهاب الذي انشأ هذا المذهب

واما اليمامة فهي بين نجد واليمن وهي تتصل بالبحرين شرقاً وبالحجاز غرباً وتسمى العروض لاعتراضها اليمن ونجد

اما غلات بلاد العرب فمنها الحنطة والذرة والشعير والقهوة والبن والفلفل والقطن والسنا مكي والباسم والعود والمر والبخور والمن والتمر وهذا الاخير هو اساس قوت اهل هذه البلاد . وفيها من الحيوانات الاسد والضبع والنمر والذئب والوعل والجواميس والغزلان والحمير والقردة والجمال والهجن والخيل وهي اجود خيول الارض موصوفة في الحسن والخفة . والمعادن في هذه البلاد قليلة جداً وفي بعض الاماكن معادن حديد ونحاس ورصاص . والعقيق واللولو في خليج فارس . واما الفنون فمجهولة في بلاد العرب والصنائع مهملة وفن الموسيقى يكاد لا يعرف فلا يسمع هناك سوى اصوات الطبول والمزامير

الباب الثاني

في اصل العرب وصفاتهم وما يتعلق بهم

ان العرب هم اقدم الامم من بعد الطوفان واشدهم بأسًا واعزهم نفسًا وهم فرقتان بدو وحضر اما البدو فهم سكان البراري والقفار الذين يعيشون من البان الابل والغنم ولحومها وينتقلون من مكان الى مكان في طلب العشب والمياه

واما اهل الحضر فهم سكان المدن والقرى. وكان لبعضهم عصور ودول وقبائل ولم يكن دابهم الاَّ شن الغارة والغزو على الممالك حتى انهم غاروا على فراعنة مصر قبل المسيح بنحو الفي سنة وانتصروا عليهم وتملكوا مصر الوسطى والسفلى وتولى منهم جملة ملوك في مدة ثلث مئة سنة وكانوا يدعون ايام دولتهم في مصر بالملوك الرعاة وهذا اقوى دليل وبرهان على قدمهم وشدة باسهم في ذلك الزمان وقد استولت ملوكهم ايضًا على الشام والعراق واليمن ونجد والحجاز والبحرين واليمامة كما سياتي بيان ذلك في محله. وجميعهم ينقسمون الى اربع طبقات متعاقبة

الطبقة الاولى العرب العاربة ويقال لها البائدة اي الهالكة وكانوا شعوبًا وقبائل كثيرة العدد كعاد وطسم وجديس وغيرها فانقرضوا جميعًا واندرسوا ولم يبقَ من نسلهم احدٌ على وجه الارض

ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة من ولد قحطان الذين منهم التبابعة ملوك اليمن ويقال ان قحطان المذكور هو اول من تكلم بالعربية من اهل هذه الطبقة تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصرًا لهم وكان ابنهُ يعرب بن قحطان من اعاظم ملوك عرب اليمن

ثم الطبقة الثالثة وهم العرب التابعة للعرب المستعربة من ولد عدنان الذي هو من ذرية اسمعيل بن ابرهيم الذي اختلط مع العرب المستعربة ونشأ بينهم وربي في احيائهم وتزوج منهم وتعلم لغتهم العربية بعد ان كان ابوهُ اعجميًا ومن هذه الطبقة المناذرة ملوك الحيرة والعراق

ثم الطبقة الرابعة وهم العرب المستعجمة اي عرب هذا العصر الذين فسدت لغتهم على تمادي الايام والسنين بمخالطتهم الاجانب وانقراض ما كان لهم من الدولة والسطوة في الجاهلية والاسلام وبقي خلفهم الى الآن وهم طوائف عديدة وشعوب كثيرة يسكنون الخيام ويجولون في البراري المقفرة واشهرهم عرب صخر وعنزة

ومن صفات العرب الشهامة والنجدة وحفظ العهود والذمام والافتخار بشدة الباس وعلو الهمة كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم ومن اطلع على اشعارهم استدلّ على احوالهم واخبارهم . ومن صفاتهم ايضًا المحافظة على شرف ناموسهم وعرضهم فكان عندهم الموت اسهل من العار والفضيحة ولفرط احترازهم ومحاماتهم عن شرف العرض توصل بعضهم على ما قيل الى عادة ذميمة ومكروهة جدًّا كدفن البنات بالحياة التي هي من اقبح العوائد وافظعها فمنهم من كان يفعل ذلك تجنبًا للعار ومنهم من القلة والفقر فكان الرجل منهم اذا وُلدت لهُ بنت واراد ان يبقيها في قيد الحياة البسها جبة من صوف او شعر وجعلها ترعى لهُ الابل والغنم في البادية وان اراد قتلها تركها حتى اذا بلغت من العمر تسع سنين يقول لامها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى زيارة اهلها فيذهب بها الى الصحراء حيث يكون قد حفر لها بيرًا وعند وصوله بها الى ذلك المكان يدفعها من خلفها ويلقيها في البير ثم يهيل عليها التراب ويذهب الى حال سبيلهِ

ومن صفات العرب ايضًا السخاء والكرم والضيافة للقريب والغريب . وكان منادي عامر بن الطُفَيل العامري ينادي في سوق عكاظ هل من

جائع فنطعمهُ او خائف فنؤمنهُ او راحل فنحملهُ . وكان ايضًا عبد الله بن جدعان يذبح في دارهِ كل يوم جزورًا وينادي مناديهِ من اراد الشحم واللحم فعليهِ بابن جدعان فلا عجب اذًا مما يحكى عن حاتم الطائي وكعب بن مامة واوس بن حارثة ومعن بن زائدة من الاخبار والقصص في الكرم والجود

ومما يحكى عن فراستهم وحذاقتهم انهم كانوا يستدلون بآثار الاقدام والحوافر استدلالاً عجيبًا فيعرفون قدمي الشاب من الشيخ والرجل من المرأة والغريب من المتوطن وكان اذا هرب منهم هارب او دخل عليهم سارق اتبعوا آثار قدمهِ حتى ظفروا بهِ

وكانوا على انواعٍ مختلفة في المذاهب والاديان وكان لهم آلهة واصنام كثيرة فعبد بنو حمير الشمس وبنو كنانة القمر وبنو لخم وجذام المشتري وبنو طي سهيلاً وبنو اسد عطارد وبنو ثقيف اللات والعزّى

وكان للعرب قديمًا شهرة عظيمة في الفصاحة والبراعة ونظم الشعر وبهم تُضرَب الامثال الى يومنا هذا وكانوا يجتمعون في اوقات معلومة معينة يبيعون ويشترون ويتفاخرون ويتناشدون الاشعار التي تدل على ايامهم ووقائعهم التاريخية وعلى ما كان عندهم من العوائد والاصطلاحات فيجتمع كل سنة بسوق عكاظ ساداتهم وملوكهم وقوادهم وقبائلهم ويجلسون في مكانٍ معلوم ثم يقوم الشاعر من بينهم ويصعد الى محلٍ مرتفع وارباب المجلس جالسون في مراتبهم فينشدهم نفائس اشعارهِ ومتى فرغ من انشادهِ قام غيرهُ من الشعراء وانشد ما عندهُ وهكذا الى النهاية . وكان للنابغة الذبياني التقدم في هذا الاجتماع فكان ينصف بينهم ويفضل بعضهم على بعض . ومن اجود اشعارهم واشهرها المعلقات السبع التي اعتنوا بها وكتبوها وزركشوها بحروف الذهب على المنسوجات الحريرية وعلقوها على الكعبة في مدينة مكة وقد اعتنت علماء الاسلام بشرحها وذلك لما فيها من الفصاحة والبلاغة والصناعة الشعرية ومن تامل في قصيدة عنترة بن شدّاد العبسي التي يقول فيها

اذا بلغ الفطام لنا وليدٌ تخرّ له اعادينا سجودا
فمن يقصد بداهيةٍ الينا يرى منا جبابرةً اسودا
ويوم البذل نعطي ما ملكنا ونملا الارض احسانًا وجودا

عرف شجاعة العرب ونخوتهم وكرم اخلاقهم وعلو همتهم . ومن اطلع على قصيدة السموأل التي منها

تعيّرنا انّا قليلٌ عديدنا فقلت لها ان الكرام قليلُ
وما ضرنا انا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجار الاكثرين ذليلُ
فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهامٌ ولا فينا يعد بخيلُ
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقولُ
وما خمدت نارٌ لنا دون طارقٍ ولا ذمّنا في النازلين نزيلُ
واسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلولُ
معودةٌ ان لا تسلّ نصالها فتغمد حتى يستباح قتيلُ

استدل ايضًا على احوالهم اذ اكثر اشعارهم على هذا النسق

الباب الثالث

في ذكر العرب قبل الاسلام

وكانت مملكة العرب منقسمة الى دول متفرقة وملوك كثيرة العدد ومن اعظم دولها في ذلك الزمان التبابعة ملوك اليمن واول من ملك منهم قحطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح وكان ملكهُ قبل المسيح بنحو الفي

سنة ثم ملك بعدهُ ابنهُ يعرب وفي السنة الاولى من ملكهِ غزا بلاد الحجاز فتغلب عليها واسر عدة من ملوكها وضرب عليهم الخراج ثم فوَّض ولاية البلاد الى اخيهِ جرهم ورجع الى بلادهِ ظافرًا منصورًا وكان يعرب مغرمًا بالبناء وهو اول من ابتدأ بعمارة المدن في اليمن وكانت مدة حكمهِ ٢٢ سنة ثم ملك بعدهُ ابنهُ يشجب ثم ابنهُ عبد شمس الملقب بسبا وكان ملكًا ظافرًا مقتدرًا كثير المغازي والحروب غزا غزواتٍ كثيرة وافتتح مدنًا حصينة وحمل السبايا الى بلاد اليمن وكانوا عددًا كثيرًا ولذلك قيل لهُ سبا وهو الذي اغار على بابل وفتحها وفيهِ يقول الشاعر

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها الى الغرب منها عبد شمس بن يشجبِ
سعى بالجياد الاعوجية والقنا الى بابل في مقنبٍ بعد مقنبِ

وكان ملكهُ خمسًا وثلثين سنة ثم ملك بعدهُ عدة ملوك لا يعلم لهم اخبار ولا وقائع ولذلك ضربنا عنهم صفحًا واكتفينا بذكر اشهرهم فمنهم الملك شمريرعش وهو في الحقيقة من اعظم ملوك هذه الدولة جلس على سرير المملكة سنة ٨٠٠ ق م كان جبارًا مقتدرًا كثير الغارات والمغازي قصد بلاد الشرق في جيش مؤلف من نحو ثلث مئة الف مقاتل فدخل ارض العراق ثم ارتحل طالبًا بلاد الصين وجعل طريقهُ على بلاد فارس فتغلب عليها وافتتح المدن والحصون ودخل مدينة السغد فهدمها وخربها فقيل لها بالفارسية شمركند اي شمر اخربها ثم أُعيد بناؤُها فبقي عليها ذلك الاسم لكنهم تصرفوا فيهِ فقالوا سمرقند وهي من المدن المشهورة في تلك البلاد وقد وُجد في بعض قصورها المنهدمة عمودٌ مكتوب عليهِ بالحميرية هذا ما بناهُ شمريرعش لسيدة الشمس

ولما استخلص شمريرعش بلاد فارس سار طالبًا بلاد الصين فخاف ملكها من خبر قدومهِ وارتبك في امرهِ وكان لهُ وزير من اعقل الناس فقال لهُ انا افديك هذه المملكة بنفسي واكفيك شر هذا الملك وجنودهِ

فقال قد فوضت هذا الامر اليك فافعل ما تريد فجدع الوزير انفهُ وسار طالبًا الملك شمر برعش وكان بينهُ وبين المدينة مسافة ست مراحل ولما اشرف عليهِ تمثل بين يديهِ واعلمهُ بنفسهِ وشكا اليهِ ظلم الملك وقال قد فعل بي ما ترى على غير جناية تستحق ذلك وخفت ان يقتلني فخرجت اليك هاربًا وارجو ان يكون افتتاح هذه المملكة عن يدي فسر معي وانا ضمينٌ لك بذلك. فاغترَّ شمر برعش بكلامهِ وبما رآهُ من جدع انفهِ وانقاد لهُ فنهض بجيشهِ وسار معهُ الوزير فقادهم في تلك القفار على طريقة غير مستقيمة حتى دخل بهم في فلواتٍ معطشة مهلكة بعيدة عن الماء فاجهدهم العطش وهم يجدُّون في طلب الماء ولا يدركونهُ حتى هلكوا جميعًا وهلك شمر برعش والوزير ايضًا وكانت مدة ملك شمر برعش المذكور سبعًا وثلثين سنة. وقام بالملك بعدهُ ابنهُ ابو مالك وبموتهِ انتقل الملك من ذريتهِ الى ولد اخيهِ كهلان وتولى منهم جملة ملوك ثم رجع الملك الى ذرية شمر برعش وكان آخر ملوكهم سيف بن ذي يزن الذي استخلص المملكة من ايدي الحبشة بمساعدة الملك كسرى انوشروان بعد ان كانوا قد استولوا عليها نحو سبعين سنة وكان ذلك بعد المسيح بخمس مئة وستين سنة

ومن ملوك العرب ايضًا الغساسنة ملوك الشام اصلهم من اليمن ثم انتقلوا الى نواحي الشام ونزلوا على ماء يقال لهُ غسان فاشتهروا بهِ حتى غلب اسمهُ عليهم فقيل لهم آل غسان ثم تغلبوا على الشام وتملكوها فكان اول ملوكهم جفنة بن عمرو واخرهم جبلة بن الايهم وهو الذي بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمهِ وكان قد اسلم في زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار الى مكة بريد الحج بمايتين وخمسين نفرًا من اصحابهِ فلما قرب من المدينة قلد اعناق خيلهِ بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجهُ على راسهِ ولما بلغ عمر بن الخطاب قدومهُ التقاهُ بموكب عظيم ورفع مقامهُ حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت اذ وطي رجل من بني فزارة طرف ازارهِ فانحل عنهُ الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمة هشم بها انفهُ

فتعلق بهِ الرجل وانطلق الى عمر ودمهُ يسيل على وجههِ وشكا اليهِ حالهُ . فقال عمر لجبلة انت في خيرة اما ان يلطمك هذا الرجل كما لطمتهُ او تفتدي اللطمة منهُ بالمال فقال جبلة لعمر أَ فلا يُفضَّل عندكم ملكٌ على سوقة قال كلاَّ بل كلاهما في الحق سواء فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بغلمانهِ وخرج بهم حتى لحق بالشام ثم سار من هناك الى قيصر واقام عندهُ فتشعبت اولادهُ في تلك البلاد وتسموا بالارناوط

ومن ملوك العرب ملوك بني كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر المشهور وهو صاحب المعلقة التي يقول في مطلعها

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وهي من افصح كلام العرب وابلغهِ يذكر فيها بعض قصصٍ واخبار تتعلق بوقائع حالهِ الخصوصية وقد اشتهرت بين الناس بهذا المقدار حتى ضُرِب بها المثل دون غيرها فيقولون اشهر من قفا نبكِ وذلك لما فيها من التشبيهات المتنوعة والمعاني البديعة المخترعة . وكانت بنو أَسد وهي قبيلة من كندة قد قتلت اباهُ في خبر مشهور فخرج الى قيصر ملك الروم يستعين بهِ ويستنجدهُ على قتال القوم فلم ينجدهُ ومات في اثناء الطريق عند رجوعهِ من القسطنطينية بقرب جبل يقال لهُ عسيب وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وخمسماية للمسيح

ومن ملوك العرب ايضاً ملوك العراق الذين اولهم مالك بن فهم واخرهم المنذر بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء الذي حاربهُ خالد بن الوليد واخذ منهُ مدينة الحيرة وكانت المناذرة يومئذٍ عمَّالاً للاكاسرة على عرب العراق كما كانت ملوك غسان عمالاً للقياصرة على عرب الشام . ومن اشهر ملوكهم جذيمة الابرش صعد على سرير المملكة بعد المسيح بثلاثين سنة وكان مسكنهُ الحيرة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر بقرب الكوفة وكانت منزلاً لملوك العراق في تلك الايام . وكان جذيمة المذكور ذا شوكة وباس وهو اول من اوقد الشمع ونصب المجانيق للحرب وجبى الاموال وكان بينهُ وبين عمرو بن الظرب ملك

الجزيرة عداوة عظيمة فاستظهر عليهِ جذيمة بعد حروبٍ طويلة وقتلهُ وملكت بعدهُ ابنتهُ الزباء واسمها نائلة وكانت تسكن على شاطي الفرات وقد بنت لها هناك مدينة وقصرًا عظيمًا وكانت عاقلة اديبة فاجمعت على اخذ الثار من جذيمة بابيها فارسلت اليهِ مع احد قوادها تخطبهُ لنفسها وتقول لهُ انها امرأة لايليق بها الملك وانها تريد ان تضيف ملكها الى ملكهِ فطمع في ذلك واستشار وزراءهُ في هذا الامر فوافقوهُ جميعهم الاَّ وزيرهُ قصير بن سعد فانهُ قال لهُ ايها الملك لاتفعل ولا تغتر بكلامها وما ارادت بذلك الاَّ تخدعك وتاخذ بثار ابيها منك فلم يلتفت جذيمة الى كلامهِ واستشار ابن اختهِ عمرو بن عدي فوافقهُ على ذلك فاستخلفهُ على المملكة وركب يومئذٍ في جماعةٍ من خواصهِ وسار اليها ومعهُ وزيرهُ قصير المذكور فلما اشرف عليها قبضت عليهِ وقتلتهُ وهرب قصير حتى اتى عمرًا ابن اخت جذيمة واخبرهُ بما كان وحرضهُ على اخذ الثار

ثم ان قصيرًا قطع انفهُ واذنيهِ ولحق بالملكة المذكورة ودخل عليها واخبرها ان عمرًا اتهمهُ بقتل خالهِ ففعل بهِ ذلك ولم يزل يخدعها بالكلام حتى اطمانت لهُ ثم طلب منها ان تاذن لهُ بالاقامة عندها فاذنت لهُ وقدمتهُ على جميع غلمانها وصارت ترسلهُ الى اليمن والحجاز بمال للتجارة فياتي الى عمرو فياخذ منهُ ضعف المال الذي معهُ ويشتري بهِ الخز والديباج والزبرجد والياقوت ويأتي بهِ اليها الى ان تمكن منها وصار عندها بمنزلة عظيمة فسلمتهُ مفاتيح الخزائن وقالت لهُ خذ ما احببت منها فاخذ جانبًا عظيمًا من مالها واتى عمرًا وقال لهُ قد عملت ما عليَّ وبقي ما عليك قال وما هو قال الرجال بالصناديق فانتخب عمرو من فرسانهِ الف رجل والبسهم السلاح واتخذ معهُ الف صندوق وجعل يسير بهم ولم يزل كذلك حتى اقترب من قصر نائلة ومدينتها فامر جماعتهُ فتأهبوا بسلاحهم ودخلوا الى الصناديق وقفلوها من داخل ووضعت الخدام الصناديق على ظهور الجمال وربطوها بالحبال حتى لا يشك كل من يراها انها قافلة ثم سبقهم قصير الى المدينة وكان ذلك وقت

العصر ودخل عليها وحياها بالسلام وقال لها قد اتيتك ايتها الملكة بتجارة عظيمة واموال جسيمة بما لم ياتِ احدٌ قط بمثلهِ فصعدت الى سطوح القصر وجعلت تنظر الجمال وهي تدخل المدينة فانكرت مشيها وجعلت تقول

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلاً يحملنَ ام حديدا

ام صرفانًا باردًا شديدًا

فقال قصير في سرهِ بل الرجال جُثَّمًا قعودا

ثم امرت بالصناديق فأُدخلت قصرها وقت المساء وقالت اذا كان الغد نظرنا الى ما اتيتنا بهِ فلما تنصف الليل فتحت الرجال الصناديق وخرجت وفي ايديها السيوف فهجموا على القصر وقتلوا جميع من كان فيهِ من الغلمان والجواري وكان لنائلة سرداب في ناحية من قصرها قد اعدتهُ لخوفٍ يحل بها لتخرج من المدينة وكان قصير يعرفهُ ووصفهُ لعمرو فسار اليهِ فلما احست بالامر بادرت الى ذلك السرداب وكانت قد رات عمرًا وهو يطلبها فحصت سمًّا كان في خاتمها ومانت من وقتها وساعتها وغنم عمرو المدينة واضافها الى مملكتهِ وانتقل بموت خالهِ جذيمة المذكور ملْك العراق اليهِ والى ذريتهِ من بعدهِ

وللعرب حروبٌ مشهورة اعظمها حرب البسوس التي هاجت بين بني بكر وتغلب بسبب قتل كليب بن ربيعة سيد القبيلتين المذكورتين وكان من خبرها ان رجلًا من بني جرم يقال لهُ سعد قصد ديار بني تغلب ونزل على البسوس خالة جساس ابن عم كليب وكان للجرمي ناقة اسمها سراب فوجدها كليب ترعى ذات يوم في حماهُ فرماها بسهمٍ فجرحها وجاءت الناقة الى صاحبها مجروحة فصرخ بالويل فلما سمعتهُ البسوس صاحت واذلاهُ لانهُ نزيلها فانتصر جساس لخالتهِ وقصد كليبًا وهو منفردٌ في حماه فطعنهُ بالرمح فقتلهُ وهرب ولما شاع امر كليب في القبيلة نهض اخوهُ المهلهل وكان من جبابرة

العرب لينتقم من بني بكر فشمر للحرب واجتمعت اليهِ فرسان تغلب وجرى بين القبيلتين عدَّة وقائع يطول شرحها كان اكثر النصر فيها للمهلهل وما زالت الفتنة بينهما ثائرة حتى انتهى الحال بقتل جساس فعند ذلك كف المهلهل عن القتال ورحل الى اليمن ليطفي جمرة الحرب بعد ما كانت قد دامت على قول الاكثرين مدة اربعين سنة

ومن حروب العرب ايضًا حرب سباق الخيل بين بني عبس وفزارة بسبب السباق بين داحس فرس قيس بن زهير سيد بني عبس والغبراء فرس حذيفة بن بدر سيد بني فزارة واختلفوا بسبب هذا السباق فثارت الحرب بينهم واشتدت وطالت سنين كثيرة ثم اصطلحت عبس وفزارة وانفرد قيس عن بني عبس وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فتنصر بها ومات

الباب الرابع

في ذكر دول العرب الاسلامية

وسنة ٦٢٢ للمسيح ظهر في مكة محمد بن عبد الله صاحب الشريعة الاسلامية فدعا العرب الى الاسلام وعبادة الخالق لانهم كانوا على ضلال يعبدون الاوثان ولا يعرفون الحلال من الحرام ويصرفون اوقاتهم بالحروب والغارات وارتكاب المعاصي فشقَّ عليهم ذلك الامر واستعظموهُ وجهروا عليهِ وحاربوهُ فنصرهُ الله عليهم فقهر جبابرتهم وفرسانهم وكسر اصنامهم واوثانهم ثم فتح الفتوحات الجليلة وتغلب على بلاد العرب

وتولى امر الاسلام بعد محمد ابو بكر الصديق سنة ٦٣٢ بعد الميلاد وكان من سادات بني هاشم واشرافها وفي اول خلافتهِ ارتد عدَّة قبائل من العرب

عن الاسلام واظهروا الخلاف والعصيان فقاتلهم وانتصر عليهم وادخلهم تحت الطاعة والانقياد ولما تمهدت له البلاد العربية شرع في المغازي والفتوحات فارسل الامير خالد بن الوليد المدعو سيف الله وابا عبيدة بن الجراح في جيش عظيم لافتتاح الممالك والبلدان وفي مدة قصيرة افتتح خالد جانبًا من بلاد العجم وتغلب ابو عبيدة على اطراف سورية بعد ان كسر جيشًا عرمرمًا من جنود الرومانيين كان قد ارسلها الملك هرقل للمدافعة والمحاماة عن تلك البلاد واختلف المؤرخون في وفاة ابي بكر فمنهم من قال انه مات مسمومًا وقال آخرون انه اغتسل في يوم شديد البرد فحُمَّ خمسة عشر يومًا ولما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى عُمَر ثم توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة الموافقة لسنة ٦٣٥ مسيحية وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة اشهر

وتولى بعدهُ عُمَر بن الخطاب سنة ٦٣٤ وكان من احسن الناس سيرة وعدلاً موصوفًا بالزهد والاستقامة بويع بالخلافة يوم وفاة ابي بكر وقال في اول خطبته يا ايها الناس ما فيكم احد اقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا اضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه وهو اول من سمي امير المومنين وكان اول شيء امر به عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولي مكانهُ ابا عبيدة بن الجرَّاح وكانت همتهُ متجهة الى الغزوات والحروب وفي ايام خلافته فتحت بلاد العجم وانهزم كسرى يزجرد واحتمى بملك الاتراك ثم فتحت الشام وبعلبك وحلب وانطاكية والقدس وجميع مدن فلسطين وانتهى الامر اخيرًا انه افتتح الديار المصرية على يد عمرو بن العاص بعد قتال شديد . وكان بالاسكندرية مكتبة يونانية شهيرة مشتملة على عدد كثير من الكتب التاريخية وانواع العلوم والآداب القديمة فكتب عمرو بن العاص الى عُمَر بن الخطاب يذكر له هذه المكتبة ويستشيرهُ فيها فاجابهُ عُمَر ان يفحصها اولاً فان وجد فيها ما يوافق نص القرآن فلا حاجة بها وان كانت تضادُّهُ فاعدامها اولى فلما

وقف عمرو على هذا الخطاب احرقها بتمامها[1] واستمر عمر بن الخطاب في خلافتهِ الى آخر سنة ٦٤٤ وفيها طعنهُ رجل يقال لهُ ابو لؤلؤة وهو يصلي في المسجد بخنجر في خاصرتهِ وتحت سرتهِ وكانت مدة خلافتهِ عشر سنين وستة اشهر وثمانية ايام

وكان هذا الخليفة بمكان عظيم من العدالة شديد الحرص في حماية الدين وحقوق الخلافة فقال ذات يوم وهو يخطب على المنبر ايها الناس من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقومهُ فقام رجل من وسط الجماعة وقال والله لو راينا فيك اعوجاجًا لقومناهُ بسيوفنا فقال الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقاوم اعوجاج عمر بسيفهِ

وتولى بعده عثمان بن عفان وفي ايامهِ امتدت فتوحات الاسلام الى بلاد المغرب وكان قد وقع بين المسلمين اختلاف وانقسام من جهة عثمان ونفر اكثر الناس منهُ حتى كادت تضرم بينهم نيران الحروب وسبب ذلك انهُ كان قد ولى قومًا من اقاربهِ واهل بيتهِ على المحفات والاقاليم الاسلامية من لا يصلحون للرياسة ولا لهم معرفة في امور السياسة . وكان قد عزل ابا موسى الاشعري احد اعيان الصحابة عن ولاية البصرة وولى عوضًا عنهُ خالهُ عبد الله بن عامر ثم عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانهُ عبد الله بن ابي السرح اخا عثمان من الرضاعة فهاج اعيان الشعب من جرى ذلك وحقدوا عليهِ ورفعوا راية الخروج عن طاعتهِ واجتمع بهِ الاشراف والسادات وطلبوا منهُ ان يعزل لهم كاتبهُ مروان وعبد الله المذكور عن ولاية الديار المصرية فاجابهم الى ذلك باتفاق الامام علي وعزل لهم عبد الله عن ولاية مصر وولى

---

[1] ان هذا الخبر ماخوذ عن مورخين افرنج وعرب منهم الشيخ احمد المقريزي الشهير اذ يقول في المجلد الاول من كتاب تاريخ الخطط والاثار صفحة ١٥٩ ان حريق مكتبة اسكندرية من عمرو بن العاص كان باشارة من عمر ابن الخطاب ولكن المتاخرين من المورخين انكروا وقوع هذه الحادثة وناقضوها ببراهين وادلة مستطيلة والله اعلم بالحقيقة

عليها محمد بن ابي بكر وكتب له امرًا بالولاية فاخذ محمد الامر وتوجه يومئذٍ الى مصر في نفرٍ من قومهِ فبينما هم في الطريق اذا بعبد على هجين آتيًا من ورائهم وهو مجدٌّ في مسيرهِ فقالوا له الى اين انت قاصد قال الى العامل بمصر قالوا هذا عامل مصر يعنون محمد بن ابي بكر قال بل العامل الآخر يعني عبد الله بن ابي السرح ففتشوهُ فوجدوا معهُ كتابًا بختم عثمان يقول له انهُ اذا جاء محمد بن ابي بكر ومن معهُ وقالوا بانك معزولٌ واروك كتابي فلا تقبل واحتل في قتلهم وابطل كتابهم واستقر في مأموريتك فلما وقف محمد بن ابي بكر على هذا الكتاب اندهش وحار ورجع في الحال بمن معهُ الى المدينة وجمع اعيان الصحابة واوقفهم على ذلك الخطاب فازداد حنقهم على عثمان ودخلوا عليهِ وسالوهُ عنهُ فاعترف بالختم وخط كاتبهِ وحلف بالله انهُ لم يامر بذلك ولا عندهُ اطلاع هذا الامر فطلبوا منهُ ان يسلمهم كاتبهُ مروان لينتقموا منهُ فابى وامتنع ثم عظمت الفتنة وتحزّب الناس واشهروا السلاح وهجم على دارهِ جمهورٌ من الشعب منهم محمد بن ابي بكر واحاطوا بها وصمموا على قتلهِ وبعد ان حاصروهُ اياماً قليلة كسروا ابواب القصر ودخلوا عليهِ وقتلوهُ سنة ٣٥ من الهجرة وكانت مدة خلافتهِ اثنتي عشرة سنة الاَّ اثني عشر يومًا ومكث ثلاثة ايام ولم يدفن(١)

ثم جلس بعدهُ على سرير الخلافة علي بن ابي طالب سنة ٦٥٥ بويع بالخلافة يوم قتل عثمان ولما سالوهُ البيعة قال لاحاجة لي في امركم فاختاروا لكم رجلاً غيري ومهما اخترتموهُ رضيت بهِ واكون وزيرًا خيرًا من ان اكون اميرًا فابوا الاَّ مبايعتهُ ثم انهم بايعوهُ وجعلوهُ خليفةً عليهم . وكان الامام علي من الفرسان المشهورين والابطال المعدودين وهو ابن عم محمد وصهرهُ وزوج ابنتهِ فاطمة وكان قد وقع بسببهِ بين الاسلام اختلاف ومنازعات من جهة ترتيب الخلافة بعد محمد فاهل السنّة يعتبرون ان هذا الترتيب الذي جرى لغاية خلافة الامام علي كان على حقهِ والشيعة يقولون ان علي بن ابي طالب كان الاحق

(١) عن ابي الفدا المطبوع في الاستانة جلد اول صفحة ١٧٩

بالتقدم في الخلافة وكل فرقةٍ تورد دلائل وبراهين تؤيد مدَّعاها

وكانت مدَّة خلافة الامام علي كلها عبارة عن تكميل فتوحات ومغازي فازدادت احكامهُ وامتدت ولايتهُ بافتتاح مملكة العجم وجميع بلاد مصر والعرب. وكان كسرى يزدجرد قد نهض لاسترجاع بلادهِ ولكنهُ لم ينجح بمشروعهِ لان القبائل والشعوب التي كانت قد تعصبت لهُ خذلتهُ وتركتهُ وبينما كان عازمًا على الهزيمة والفرار خانهُ خادمهُ وقتلهُ . وكانت خلافة علي خمس سنين الاَّ ثلاثة اشهر وسبب موتهِ انهُ وثب عليهِ جماعة من الخوارج فضربهُ احدهم بسيفٍ في جبهتهِ فمات كما سياتي بيان ذلك في ترجمة معاوية بن ابي سفيان راس الدولة الاموية وتولى بعدهُ ابنهُ الحسن بن علي بن ابي طالب فحكم نحو ستة شهور ثم جاءت دولة بني أُميَّة

الباب الخامس

في ذكر بني أُميَّة

كان هولاء القوم وبنو هاشم حيًّا واحدًا ينتمون لعبد مناف وهم من اشراف عرب قريش وسادتها الاَّ ان بني أُمية كانوا اكثر عددًا من بني هاشم ولوفر رجالاً وكان لهم قبل الاسلام شرف وفخر فلما مات عثمان بن عفان وهو الخليفة الثالث من بني هاشم اختلف الناس على خلافة علي بن طالب لانهُ من آل هاشم ورجعوا الى امر العصبية الطبيعية التي لاتفارق الانسان الا ان عساكر علي كانت في ذلك الوقت اكثر عددًا لتوطيد كرسي الخلافة فلم يكن سبيلٌ لبني امية او غيرها من طوائف العرب ان تغتصب الخلافة منهُ ولكن لسبب كثرة حروبهِ الخارجية مع الانشقاقات والتحزبات الداخلية ضعفت شوكة

بني هاشم فنهض معاوية بن ابي سفيان الاموي في طلب الرياسة والاخذ بثار عثمان بن عفان من علي بن ابي طالب مع ان عليًا لم يكن لهُ شركة في قتلهِ ورفض حق علي للخلافة فوافقهُ على ذلك جماعة من الاشراف والاكابر من جملتهم عمرو بن العاص الذي كان يومئذٍ عاملاً في مصر وبايعوهُ بالخلافة وجرت بين علي ومعاوية وقائع هائلة يطول شرحها قتل فيها الوفٌ كثيرة من القواد والفرسان واكابر الاعيان ثم تهادنا وافترقا وكان قد هاج غضب ايمة الاسلام وامرائها في مكة وغيرها من البلاد واشتد حنقهم بسبب هذه المشاحنة والفتنة العظيمة وذكروا اصحابهم واخوانهم المقتولين وقالوا لو قتلنا اكابر القواد لارحنا منهم العباد وانقذنا الامة الاسلامية من هذه البلية فانتدب لهذا العمل ثلاثة الخاص وهم عبد الرحمن بن ملجم وعمرو بن بكير والبرك بن عبد الله فقال ابن ملجم انا اكفيكم عليًا وقال البرك انا اكفيكم معاوية وقال ابن بكير انا اكفيكم عمرو بن العاص وتواعدوا لسبع عشرة تمضي من شهر رمضان فقتل ابن ملجم عليًا كما تقدم واما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربهُ بالسيف فاخطأهُ فامسكوهُ فقال لمعاوية اني ابشرك فلا تقتلني قال بماذا فقال رفيقي قتل عليًا هذه الليلة فقال كيف ذلك فاخبرهُ بواقعة الحال فقتلهُ معاوية واما ابن بكير فجلس تلك الليلة يترقب عمرو بن العاص فلم يخرج من منزلهِ

وبعد موت علي قويت شوكة معاوية وانحطت منزلة الحسن بن علي فخلع الحسن نفسهُ من الخلافة خوفًا من العواقب واتفقت الجماعة على بيعة معاوية فبايعوهُ في منتصف سنة احدى واربعين من الهجرة

ولما استقام الامر لمعاوية وتمكن من سرير الخلافة جعل كرسي مملكتهِ بمدينة الشام وامتدت احكامهُ على مصر والحجاز وخرسان وسائر اقطار الاسلام . ثم نهض لمحاربة الرومانيين وافتتاح مدينة القسطنطينية ويقال انهُ غزاها خمسة اعوام متتابعة في جموع كالجراد المنتشر فكان يقصدها في زمن الصيف ويرجع عنها في فصل الشتاء ولم يتمكن منها . وكان احد اليونانيين المدعو

كلينيكيوس من مدينة هيليوبوليس قد اخترع حراريق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وجاء بها الى القسطنطينية ومن عجيب خواصها انها كانت اذا اشتعلت لا تطفأ واذا مست الخشب اشعلته في الحال واعدمته واذا القيت على عسكرٍ اهلكته وفي المرة الاخيرة من هذه الغزوات خسر معاوية جميع مراكبهِ وجيوشهِ بواسطة هذه الحراريق واضطر ان يتحوَّل عن المدينة رغمًا وقهرًا بعد ان عقد صلحًا وتعهد لملك القسطنطينية ان يدفع لهُ خراجًا عن ثلاثين سنة . وكانت مدة خلافة معاوية المذكور نحو عشرين سنة

ومن افاضل ملوك هذه الدولة عبد الملك بن مروان جلس على سرير الخلافة سنة ٦٩٣ مسيحية وهو اول من ضرب السكة الاسلامية سنة ٧٦ هجرية وبالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية وكانت مدة حكمهِ ثلاث عشرة سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ الوليد بن عبد الملك وهو الذي بنى الجامع الكبير بدمشق المشهور بالجامع الاموي وكان في جانب الجامع كنيسة للنصارى تعرف بكنيسة مار يوحنا فهدمها الوليد وادخلها في الجامع . وفي ايام هذا الخليفة امتدت فتوحات الاسلام الى داخل افريقية وتوغلت جيوشها في سهولها وصحاريها واتصلت غزواتها الى جبل الاطلس واخضعت قبائل المغاربة الكائنة على الشطوط البحرية واستولت على مدنها وقلاعها وادخلت اهلها في الديانة الاسلامية واخافت قلوب الناس بقوة سطوتها وغاراتها . ولما تهدت لها تلك الديار علقت امالها بافتتاح بلاد الاندلس اي مملكة اسبانيا المجاورة لها وشرعت في الاستعداد للتغلب على سواحل اوروبا الكائنة تجاه شطوط افريقية فجندت الجنود وجهزت المراكب وقصدت تلك النواحي والاطراف ولكنها بعد حروبٍ كثيرة ارتدت راجعة الى الوراء بدون فائدة وما زالت تترقب الفرص من وقت الى وقت حتى حدث بعض اضطرابات داخلية في اسبانيا بين ملوكها واشرافها فتحت الباب لدخول الاسلام اليها كما سنبين ذلك في تاريخ تلك

الامة لان ذلك من متعلقاتها . اما هنا فنقول بانهُ في اوائل القرن الثامن اذ كان موسى بن نصير عاملاً على بلاد المغرب من طرف الوليد بن عبد الملك والملك رودريك والياً على اسبانيا عبر قوم من اشراف الاسبانيين الى افريقية واتوا موسى وطلبوا منهُ ان يقيم حرباً على الاندلس وينتقم من ملكها رودريك الذي كان اغتصب تاج الملك بدون حق . فاجابهم موسى الى طلبهم من بعد ما استأذن الوليد في ذلك وارسل طارق بن زياد وهو قائد من قواد العرب بجمهور من الابطال والفرسان لافتتاح تلك البلاد فسار بهم الى تلك الاطراف ورسا بسفنهِ تجاه جبل الفتح الذي تسمى باسمهِ اليوم جبل طارق الى يومنا هذا . وكان الكونت جوليان احد اشراف اسبانيا من جملة اخصام رودريك وذا سطوة وصولة فاتحد سرًّا مع المسلمين وسهل لهم مساعيهم فاستولى طارق على المدينة التي على حافة الجبل المذكور ثم احرق جميع سفنهِ بالنار ليقطع امل عسكرهِ من الرجوع قبل الغلبة والانتصار فاشتبك حينئذٍ القتال بينهُ وبين الاسبانيين وحدث بينهما عدَّة وقائع بسيطة الى ان دهمهُ ملك اسبانيا بتسعين الف مقاتل فالتحمت الحرب بينهم في مكان يقال لهُ سهل نهر كودالت وذلك يوم الاحد قبل غاية شهر رمضان بيومين سنة ٩٢ للهجرة وكان يومًا مهولاً انتشب فيهِ القتال عند طلوع الفجر وكانت لوائح الثبات والنشاط تلوح على اوجه الفريقين مع ان عدد الاسبانيين كان اربعة اضعاف عدد العرب وكانت عساكر الاسلام اكثرها من المغاربة فتجلدت وصبرت وقاتلت قتالاً فوق طاقتها فالجأت عساكر الاسبانيين الى الهرب والفرار بعد ان قتل منها مقتلة عظيمة وغرق ملكها رودريك في النهر ولما بلغ موسى بن نصير خبر هذا الانتصار تجهز بجيش جرار وسار بنفسهِ الى تلك الديار وجال بجنودهِ تجاه مدينة طليطلة التي كانت يومئذٍ عاصمة المملكة فافتتحها وملكها وما زالت الاسلام تفتح المدن والحصون حتى انها في اقل من خمسين سنة استولت على جميع اقطار اسبانيا وصارت المملكة في قبضة ايديهم لا مشارك لهم فيها ولا

منازع ما عدا جبال استوريا التي التجا اليها الامير بيلاجيوس احد رجال العائلة الملكية مع جمهور عظيم من اتباعهِ فعصوا فيها واستقلوا بانفسهم . وكان حكم الاسلام ممتدًّا من البحر المتوسط الى جبال البرن الواقعة على شمالي البلاد. ومع كل ذلك لم يكتفِ المسلمون بهذه الانتصارات العظيمة بل تقدموا وقطعوا تلك الجبال المذكورة ودخلوا تخوم فرنسا قاصدين ان يمتلكوها ويستولوا على باقي ممالك اوروبا فاستعد لقتالهم الملك كارلوس مارتل خوفًا من غائلتهم والتقاهم بعسكرٍ عديد بالقرب من مدينة طور وبعد وقائع هائلة من الجانبين ظفر ملك فرنسا بهم وشتت شملهم وقتل منهم على ما ذكر مورخو الافرنج نحو ثلاث مية الف نسمة وانهزم المسلمون ومن ذلك الوقت ضعفت شوكتهم في تلك البلاد ولم يعد يمكنهم ان يثيروا حربًا ثانيةً على تلك الجهات الشمالية . وكانت مدة خلافة الوليد بن عبد الملك تسع سنين وتولى بعدهُ اخوهُ سليمان ثم غيرهُ وكان آخر خلفاء هذه الدولة مروان بن محمد بن مروان فحكم نحو خمس سنين ومات قتيلاً سنة ١٣٢ هجرية الموافقة لسنة ٧٥٠ مسيحية وبموتهِ ظهرت الدولة العباسية فكان عدد خلفاء هذه الدولة اربعة عشر

الباب السادس

في ذكر الدولة العباسية

وكانت دولة الاسلام دولة واحدة في ايام الخلفاء الاربعة وبني امية من بعدهم لاجتماع عصبية العرب ثم ظهر من بعد ذلك امر الشيعة من سلالة العباس عم محمد فادعوا بان لهم حقًّا بالامامة ووافقهم على ذلك حزبٌ كبير من الناس في ايام مروان آخر خلفاء بني أُمية . فكان الامويون يضعون على

ثيابهم اشارةً بيضاء والعباسيون علامةً سوداء واما الفاطميون الذين ينتسبون الى علي وفاطمة فانهم كانوا قد تنازلوا عن حقوقهم في الرياسة والتملك والتصقوا بالامور الدينية وانعكفوا عليها واشتهروا بالتقوى والصلاح بين الناس وامتازوا عن الحزبين المذكورين بعمات خضراء ولما كثرت التحزبات والانقسامات واشتدت العداوة بين الحزب الاسود والحزب الابيض انتهى الامر بحدوث حرب بين مروان والعباس الملقب بالسفاح الذي هو اول ملوك الدولة العباسية فكانت الدائرة على بني أُمية فقتل مروان المذكور ولم يسلم من ذرية بني أُمية غير رجلٍ واحد يقال له عبد الرحمن فهرب الى بلاد الاندلس فترحب بهِ الاهالي واحترموهُ وتبوّأ هناك تخت قرطبة سنة ٧٥٦ وتولت ذريتهُ من بعدهِ ما ينوف على مئتين وخمسين سنة . ثم اغتصب الخلافة بعدهم بعض امراء المغرب وانحصرت ولايتهم في مقاطعة غرناطة وضعفت شوكتهم شيئًا فشيئًا الى ان انقرضت احكامهم من تلك البلاد سنة ١٤٨١ كما سياتي الكلام عليهم في تاريخ اسبانيا

وتبوّأ السفاح سرير الخلافة سنة ٧٥٠ للمسيح وكان رجلاً شجاعًا مهيبًا عالي الهمة محبوبًا من جميع الناس وكان مسكنهُ بالحيرة واستمر بالملك الى ان توفي بعد اربعة اعوام من حكمهِ وتولى بعدهُ اخوهُ المنصور ابو جعفر وكان رجلاً كريم الاخلاق موصوفًا بالذكاء والفراسة وهو الذي بنى مدينة بغداد خوفًا من ثورة الاعداء عليهِ بالكوفة فشرع في بنائها وكتب الى بلاد الشام وطبرستان والكوفة والبصرة في طلب الصناع والفعلة واختار جماعة من اهل الامانة والمعرفة بالهندسة ممن يعتمد عليهم لمباشرة هذا العمل فخطها وامر بحفر اسسها فاقيمت المدينة وجعلها المنصور دار الخلافة وكانت اول مدينة عظيمة في مملكة الاسلام وكان عدد سكانها على ما قيل نحو مليونين . ومات المنصور سنة ٧٧٥ للمسيح بعد ان حكم مدة عشرين سنة وتولى بعدهُ ابنهُ المهدي بن المنصور عشر سنين ثم ابنهُ الهادي بن المهدي وكانت مدة حكمهِ سنة وثلاثة

اشهر ثم قام بالخلافة بعدهُ اخوهُ هرون الرشيد بن المهدي جلس على سرير الخلافة سنة ٧٨٦ للمسيح وكان هذا الخليفة من اشهر وافضل ملوك هذه الدولة عاقلاً مهيبًا عالي الهمة موصوفًا بالحلم وحسن التدبير راويًا للاخبار والتواريخ يحب الشعر والشعراء ويميل الى اهل العلم حتى قيل انهُ لم يجتمع على باب ملك او سلطان من الشعراء والعلماء والندماء ما اجتمع على بابهِ وكانت دولتهُ من اعظم الدول الاسلامية واكثرها وقائع واجملها رونقًا امتدت فيها التجارة واتسعت دوائر العلوم والاداب في جميع البلاد وكتبت الكتب التاريخية والادبية وترجمت المؤلفات الفلسفية والعلمية من اللغة اليونانية الى العربية وتنافس الكتاب في ترجمتها وكتابتها . وفي مدة حكمهِ كان على فرانسا الملك كارلوس الكبير المسمى شارلمان وكان بينهما مودة والفة وكان الرشيد كثيرًا ما يكاتبهُ ويهاديهِ ومن جملة ما اهداهُ شطرنجًا ثمينًا وساعة شمسية من مخترعات بلاد الشرق وانواعًا كثيرة من البزور التي لا توجد في البلاد الافرنجية وارسل لهُ ايضًا مفاتيح كنيسة القيامة في القدس مع امرٍ لنوابهِ ان يعاملوا الزوَّار الذين ياتون لزيارة الاراضي المقدسة احسن معاملة

ومن مناقب هذا الخليفة انهُ كان انيسًا وديعًا الى الغاية غير محتجب عن اصحاب الدعاوي والحاجات محافظًا على جلب راحة رعاياهُ وكان يطوف في اكثر الليالي متخفيًا في اسواق بغداد وشوارعها ليتوقف على احوال الناس فاذا رأى احدًا منهم مظلومًا اعانهُ وانصفهُ قيل ان امراةً دخلت عليهِ يومًا وشكت لهُ عن الاضرار والخسائر التي لحقت بها بمرور جيوشهِ في اراضيها فاجابها الرشيد قائلاً لقد جاء في الحديث الشريف انهُ من عادة العسكر ان يضر بالاراضي عند مرورهِ بها للغزو والجهاد فيجب على اصحاب الاملاك ان تحتمل اضرارهُ وتقوم بخدمتهِ فقالت لهُ على الفور وقد قيل ايضًا ان الملوك التي تسمح بظلم رعيتها تجلب خرابًا على مملكتها فاستحسن الرشيد خطابها وامر الخازن ان يدفع لها من بيت المال اضعاف خسائرها . وكان الرشيد قد

استوزر يحيى بن خالد البرمكي عند جلوسهِ على تخت المملكة وكان يحيى قبل الخلافة كاتبهُ ونائبهُ فنهض باعباء الدولة اتم نهوض واظهر رونق الخلافة وكان كاتبًا بليغًا اديبًا لبيبًا موصوفًا بالجود والكرم وفيهِ يقول القائل

لاتراني مصافحًا كف يحيى انني ان فعلت ضيعت مالي

لو يمسُّ البخيلُ راحة يحيى لسخت نفسهُ ببذل النوالِ

وكان ولداهُ جعفر والفضل ابنا يحيى من كرماء الناس وكان الرشيد يميل الى جعفر اكثر من اخيهِ الفضل لسهولة اخلاقهِ وفصاحة لسانهِ فجعلهُ وزيرًا ثانيًا بعد ابيهِ يحيى وقدمهُ على جميع خواصهِ وعظمائهِ حتى انهُ كان يستشيرهُ في جميع امورهِ واحوالهِ ولا يفعل شيئًا الّا باطلاعهِ ورايهِ

قيل صنع الرشيد وليمةً عظيمة ذات يوم وزخرف مجالسهُ واحضر ابا العتاهية الشاعر وقال لهُ صف لنا ما نحن فيهِ من نعيم هذه الدنيا فقال الشاعر

عش ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصورِ

فقال الرشيد احسنت ثم ماذا فقال

يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح ابو البكورِ

فقال حسنٌ ثم ماذا فقال

فاذا النفوس تقعقعت في ظل حشرجةِ الصدورِ

فهناك تعلم موقنًا ما كنت الّا في غرورِ

فبكى الرشيد فقال جعفر بن يحيى لابي العتاهية ارسل اليك الخليفة لتسرّهُ فاحزنتهُ فقال الرشيد دعهُ فانهُ رانا في سرورٍ ونعيمٍ عظيم فكره ان يزيدنا منهُ

وكان الرشيد يحب جعفرًا حبًّا عظيمًا ومن فرط حبهِ لهُ زوجهُ باختهِ العباسة بشرط ان لا يقع بينهُ وبينها ما يقع بين الرجال والنساء وذكر المورخون ان هذه الزيجة كانت لرفع الحجاب بينها وبين جعفر في حضرة الرشيد على المائدة . ويقال ان جعفرًا قد خان هذا العهد وتزوج بها سرًّا وكان كثيرون من

حسادهِ ومبغضيهِ قد وشوهُ الى الخليفة وذكروهُ بالقبيح حتى مقتهُ ونفر منهُ ثم قتلهُ بعد ذلك وقبض على ابيهِ واخوتهِ واهلهِ وكانوا خمسين نفرًا فحبسهم وقتلهم واستوزر بعد جعفر الفضل بن الربيع ولكنهُ ندم اخيرًا على ما فعل

وكان الرشيد مع كل هذه الاوصاف والمناقب ذا شجاعة وباس لا يبالي بالمخاطر والاهوال ويقال انهُ انتصر في ثمان حروب حضرها بنفسهِ وقاتل فيها قتالاً حسنًا . وكان قد ارسل رافع بن الليث حكمدارًا على اعمال خراسان فبوصولهِ اليها خلع الطاعة واظهر العصيان ولم يكتفِ بذلك بل اغار على مدينة سمرقند وافتتحها وقتل عاملها وملكها فلما بلغ الرشيد هذا الخبر ساءهُ جدًّا وخرج الى قتالهِ وعند وصولهِ الى مدينة طوس من اعمال خراسان مرض مرضًا شديدًا ولما زاد عليهِ الحال التفت الى وزيرهِ الفضل وقال

احين دنا ما كنت اخشى دنوهُ رمتني عيون الناس من كل جانبِ
فاصبحت مرحومًا وكنت محسدًا فصبرًا على مكروه مرّ العواقبِ
سابكي على الحب الذي كان بيننا واندب ايام السرور الذواهبِ

ثم مات ودفن هناك وكانت وفاتهُ سنة ٨٠٩ للمسيح وتولى بعدهُ ابنهُ الامين ومما يحكى عنهُ انهُ كان ضعيف الراي منهمكًا باللذات والملاهي مدمنًا الخمر مشتغلاً بولائمهِ ومسراتهِ غير ملتفت الى امور الخلافة وكان قد وقع بينهُ وبين اخيهِ المامون فتنة وعداوة فتحزب مع المامون كثير من العساكر وقواد الجيوش وجرى بين الاخوين حروبٌ ووقائع يطول شرحها قتل فيها الامين وكانت مدة حكمهِ نحو اربع سنين وتولى بعدهُ اخوهُ المامون فكان رجلاً شجاعًا مهيبًا موصوفًا بالحذاقة والادب متخلقًا بجميل الاخلاق مشغوفًا بمطالعة التواريخ والسير وكان لهُ مشاركة في كثير من العلوم والفنون ولا سيما في علم الافلاك والنجوم وكان ديوانهُ مشحونًا بالعلماء والشعراء وارباب الانشاء ويقال انهُ عند جلوسهِ على سرير الخلافة جمع مكتبة عظيمة من الكتب اليونانية المفيدة وامر بترجمتها الى اللغة العربية من جملتها كتاب اقليدس في فن الهندسة لامتداد

المعارف بين الناس حتى فاق على ابيهِ وامتاز في انتشار الفوائد والآداب وكان مع هذه الاوصاف والصفات من ارباب الغزو والفتوحات فهو الذي غزا بلاد صقلية في اوروبا وتغلب عليها وافتتح جزيرة كريت وغيرها من مدائن الشرق التي كانت تحت تسلط الرومانيين واستمر بالخلافة نحو عشرين سنة الى ان توفي وقام بالخلافة بعدهُ المعتصم بالله فاستخدم في بابهِ نحو خمسين الف نفر من الاتراك التترية لمحافظة الثغور والحدود الاسلامية وكانوا يزدادون في العدد والقوة يومًا بعد يوم الى ان قويت شوكتهم وصار يخشى من باسهم وسطوتهم وصاروا على تمادي الايام اصحاب النهي والامر فكانوا يقتلون ويولّون من شاءوا من الولاة والعمّال حتى لم يعد للخليفة في ايامهم من الحكم الاَّ مجرد الخطبة والاسم وجميع الامور في ايديهم كما كانت في ايدي المماليك في الديار المصرية واستمر الحال على مثل ذلك الى ايام المعتضد بالله سنة ٨٩٢ للمسيح حينما وقعت المفاسد والفتن في الدولة العباسية وضعفت شوكتها بعد ذلك العز والاقتدار وما زالت في انحطاط وسقوط حتى تضعضعت اركانها واختل عقد نظامها وفقدت اكثر املاكها ولم يبقَ لملوكها من الولايات والمملكات غير بغداد واطرافها وتغلب عمّالها على اكثر اقطارها فخلعوا الطاعة واغتصبوا الاحكام بطريق التعدي والعدوان وصاروا دولاً متفرقة وولاةً متعددة فكانت خرسان وما وراء النهر لابن سامان وذريتهِ وبلاد البحرين للقرامطة واليمن لابن طباطبا واصبهان وفارس لبني بويه والاهواز وواسط لعزّ الدولة وحلب لسيف الدولة وديار مصر لاحمد بن طولون وغيرهِ من الدول والملوك الذين تغلبوا عليها ايضًا واستقلوا باحكامها في ازمنة مختلفة كالاخشيديين والفاطميين والايوبيين والمماليك الجراكسة كما سياتي الكلام على دولهم وملوكهم مفصلاً في ذكر تاريخ مصر

وما زالت احوال الدولة العباسية في انقسام واختلال الى ان ظهرت الدولة السلجوقية وكانت مساكن اهلها فيما وراء نهر الفرات في مكان يبعد عن بخارا مسافة عشرين فرسخًا وكانوا شعوبًا كثيرة وطوائف عديدة وهم قومٌ من

جنس الاتراك التترية وتلقبوا بالسلجوقية نسبةً الى جدهم سلجوق من بلاد تركستان ولما عظم شانهم واشتهر بين الناس حالهم قصدوا بلاد خراسان بجيش جرار سنة ١٠٢٧ مسيحية تحت راية طغرلبك حفيد سلجوق وهو اول سلاطينهم وجرت لهم مع ولاة خراسان حروب يطول شرحها فاخضعوا الدولة الغزنوية التي كانت قصبتها مدينة غزنة اي افغانستان ثم تغلبوا على خوارزم وطبرستان وغيرها من ممالك الشرق وخلاصة الامر انهم استظهروا على كثير من البلاد ثم امتلكوا نيسابور احدى قواعد خراسان واتسع لهم الملك واقتسموا البلاد ثم ملكوا بغداد والعراق سنة ١٠٥٧ في زمن خلافة القائم بامر الله ولكنهم لم يتعرضوا له بسوء وبعد هذه الفتوحات دعا طغرلبك نفسهُ امير الامراء وتزوّج ابنة الخليفة المذكور وجعلهُ نائبًا لهُ في بغداد كباقي العمال والنواب ثم توفي طغرلبك سنة ١٠٦٣ وقام بالسلطنة من بعدهِ ابن اخيهِ الب ارسلان وهو اسم تركي معناهُ شجاع اسد فاخضع بلادًا كثيرة ثم قام بعدهُ ابنهُ ملك شاه ابن الب ارسلان ففتح الولايات والاقاليم واتسعت عليهِ المملكة وملك ما لم يملكهُ احدٌ من ملوك الاسلام فامتدت مملكتهُ من شطوط بلاد الصين الى نواحي القسطنطينية وخُطب لهُ على جميع منابر الاسلام . وكان لملك شاه المذكور ابن عم يدعى سليمان وهو الذي اسس ولاية قونية السلجوقية سنة ١٠٧٨ التي دعيت عاصمتها بعد ذلك بمدينة نيقية وكانت هذه الولاية تتضمن كل بلاد اسيا الصغرى تقريبًا مع كيليكيا وارمينيا وكانت يومئذٍ حلب والشام وانطاكية والموصل جميعها ولايات سلجوقية مستقلة . وفي ايام هذه الدولة جاءت طوائف الافرنج الصليبية الى الاراضي المقدسة وكانت اكثر حروبهم ووقائعهم مع هذه الدولة . وسنة ١١٧١ تغلبت الدولة الايوبية الكردية على الاقطار المصرية والشامية ثم بعد ذلك بعشرين سنة نهض احد خانات خراسان بجيوشٍ كثيرة واستخلص جميع الممالك السلجوقية فانقرضت واضمحلت وكانت مدة ايامها نحو ١٥٦ سنة وذلك من سنة ١٠٣٨ الى سنة ١١٩٤ وفي زمانها كانت الخلافة باقية في بغداد تتعاطى

الامور الدينية فقط ولم يكن لها ادنى سطوة في الامور السياسية

وعند نهاية احكام الدولة المذكورة ظهر جنكيزخان الشهير وهو من قبائل المغول فاخضع كل البلاد الاسلامية ومن ذريته قام هولاكو ملك التتر وزحف بمايتي الف مقاتل الى العراق ففتح بلاد الري واصبهان وهمذان واستولى عليها ثم قصد مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ فحاصرها وافتتحها وقتل المستعصم بن المستنصر وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وامر بنهب المدينة فخرج النساء والصبيان يستغيثون به فداستهم العساكر وماتوا جميعًا وكانت مصيبة عظيمة على المسلمين لم يسمع بمثلها قط ويقال ان الذي أُحصي ذلك اليوم من القتلى الف الف وست مئة الف نسمة وان يكن هذا النقل من مبالغة المورخين الاقدمين فلا اقل من كونه يفيد ان الخسارة كانت جسيمة جدًّا ونهبت عساكر التتر من قصور الخلفاء وخزائنها اموالاً وذخائر لا تُعد ولا تحصى والقوا جميع كتب العلم في نهر دجلة وكانت عددًا عظيمًا وانتقل منصب الخلافة ببغداد من بني العباس الى ملوك التتر من ذلك اليوم وكان عدد من تولى من العباسيين بمدينة بغداد من يوم بويع للسفاح الى ان قتل المستعصم سبعة وثلاثين واستولى التتر بعد ذلك على سائر الممالك الاسلامية وبحكمهم انقرضت العائلة العربية الملكية واستمرت الحكومة بايديهم الى نحو سنة ١٣٥٠ مسيحية حين جاءت دولة الاتراك من آل عثمان فنزعت من ايديهم المملكة واستولت عليها شيئًا فشيئًا حتى اخضعت بلاد العراق واستولت على الشام والحجاز واليمن ومصر والمغرب واسيا الصغرى وبعض اطراف اوروبا كما سياتي بيان ذلك في محله ان شاء الله تعالى وما زالت البلاد باقية تحت تصرفها وخاضعة لقوانينها واحكامها الى هذا اليوم

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء ظهور الاسلام

	اسم الخليفة	تاريخ التملك بعد المسيح	تاريخ التملك بعد الهجرة
الخلفاء الراشدون في مكة	ابو بكر الصديق	٦٣٢	١١
	عمر بن الخطاب	٦٣٤	١٣
	عثمان بن عفان	٦٤٤	٢٤
	علي بن ابي طالب	٦٥٥	٣٧
	الحسن بن علي بن ابي طالب	٦٦١	٤٢
بنو امية قاعدة ملكهم الشام	معاوية بن ابي سفيان	٦٦١	٤٢
	يزيد بن معاوية بن ابي سفيان	٦٨٠	٦١
	معاوية بن يزيد	٦٨٣	٦٤
	مروان	٦٨٤	٦٥
	عبد الملك بن مروان	٦٨٥	٦٦
	الوليد بن يزيد	٧٠٥	٨٧
	سليمان بن عبد الملك	٧١٥	٩٧
	عمر بن عبد العزيز	٧١٧	٩٩
	يزيد بن عبد الملك	٧٢٠	١٠٢
	هشام بن عبد الملك	٧٢٤	١٠٦
	الوليد بن يزيد	٧٤٣	١٢٦
	يزيد بن الوليد	٧٤٤	١٢٧
	ابرهيم بن الوليد	٧٤٤	١٢٧
	مروان بن محمد بن مروان	٧٤٤	١٢٧

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء ظهور الاسلام

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	اسم الخليفة	
١٣٢	٧٥٠	العباس الملقب بالسفاح	بنو العباس قاعدة ملكهم بغداد
١٣٧	٧٥٤	ابو جعفر المنصور	
١٥٩	٧٧٥	المهدي	
١٦٩	٧٨٥	الهادي بن المهدي	
١٧٠	٧٨٦	هرون الرشيد	
١٩٤	٨٠٩	الامين	
١٩٨	٨١٣	المامون	
٢١٨	٨٣٣	المعتصم بالله	
٢٢٨	٨٤٢	الواثق بالله	
٢٣٢	٨٤٧	المتوكل على الله	
٢٤٧	٨٦١	المستنصر بالله	
٢٤٨	٨٦٢	المستعين بالله	
٢٥٢	٨٦٦	المعتز بالله	
٢٥٦	٨٦٩	المهتدي بالله	
٢٥٧	٨٧٠	المعتمد بالله	
٢٧٩	٨٩٢	المعتضد بالله	
٢٩٠	٩٠٢	المكتفي بالله	
٢٩٦	٩٠٨	المقتدر بالله	
٣٢٠	٩٣٢	القاهر بالله	
٣٢٢	٩٣٤	الراضي بالله	

obeikandl.com

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء ظهور الاسلام

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	اسم الخليفة	
٣٢٩	٩٤٠	المتقي بالله	بنو العباس
٣٣٣	٩٤٤	المستكفي بالله	
٣٣٥	٩٤٦	المطيع لله	
٣٦٤	٩٧٤	الطائع لله	
٣٨١	٩٩١	القادر بالله	
٤٢٢	١٠٣١	القائم بامر الله	
٤٦٨	١٠٧٥	المقتدي بالله	
٤٨٧	١٠٩٤	المستظهر بالله	
٥١٢	١١١٨	المسترشد بالله	
٥٣٠	١١٣٥	الراشد	
٥٣١	١١٣٦	المقتفي امر الله	
٥٥٥	١١٦٠	المستنجد بالله	
٥٦٦	١١٧٠	المستضيء بنور الله	
٥٧٦	١١٨٠	الناصر لدين الله	
٦٢٢	١٢٢٥	الظاهر بالله	
٦٢٣	١٢٢٦	المستنصر بالله	
٦٤١	١٢٤٣	المستعصم بالله	
الى	الى		
٦٥٧	١٢٥٨		

خلفاء قرطبة في الاندلس				خلفاء الفاطميين في مصر		
هجرية	مسيحية		اسم الخليفة	هجرية	مسيحية	اسم الخليفة
١٣٩	٧٥٦	١	عبد الرحمن	٢٩٧	٩٠٩	عُبيد الله
١٧١	٧٨٧	١	هشام	٣٢٥	٩٣٦	القائم ابو القاسم (١)
١٨٠	٧٩٦	١	الحكم	٣٣٤	٩٤٥	المنصور (١)
٢٠٧	٨٢٢	٢	عبد الرحمن	٣٤٢	٩٥٣	المعز لدين الله
٢٣٨	٨٥٢		محمد	٣٦٥	٩٧٥	العزيز بالله ابي النصر
٢٧٣	٨٨٥		المنذر	٣٨٦	٩٩٦	الحاكم بامر الله
٢٧٦	٨٨٩		عبد الله	٤١٢	١٠٢١	الظاهر لاعزاز دين الله
٣٠٠	٩١٢	٣	عبد الرحمن	٤٢٨	١٠٣٦	المستنصر بالله
٣٥٠	٩٦١	٣	الحكم	٤٨٧	١٠٩٤	المستعلي بالله
٣٦٦	٩٧٦	٣	هشام	٤٩٥	١١٠١	الآمر باحكام الله
٣٩٧	١٠٠٦		محمد المهدي	٥٢٥	١١٣٠	الحافظ لدين الله
٤٠٠	١٠٠٩		سليمان المستعين	٥٤٤	١١٤٩	الظافر باعداء الله
٤٠١	١٠١٠		محمد المهدي ثانية	٥٥٠	١١٥٠	الفائز بنصر الله
٤٠٣	١٠١٢		هشام من جديد	٥٥٥	١١٦٠	العاضد لدين الله
٤٠٦	١٠١٥		حمود العلوي	الى	الى	
٤٠٨	١٠١٧		القاسم "	٥٦٧	١١٧١	
٤٠٩	١٠١٨		يحيى "			
٤١٨	١٠٢٧	٤	هشام			
الى	الى					
٤٢٢	١٠٣١					

(١) هولاء الثلثة استقلوا باحكام بلاد الغرب قبل افتتاح الديار المصرية

الفصل الثامن

في تاريخ سورية

الباب الاول

في جغرافية سورية وسكانها الاولين

هذه البلاد يحدها شمالاً اسيا الصغرى وشرقًا نهر الفرات وبلاد العرب وجنوبًا فلسطين وقسمٌ من بلاد العرب وغربًا بحر الروم

وانقسمت قديمًا الى قسمين سورية وفلسطين ولكن عند استيلاء الرومانيين عليها بمدة يسيرة قبل المسيح اطلقوا على القسمين اسم سورية ولما افتتحها المسلمون سنة ٦٣٣ للمسيح لقبوها بر الشام. وكانت تدعى في سالف الازمنة باسماء مختلفة منها ارض كنعان نسبةً الى كنعان بكر حام بن نوح التي انقسمت البلاد بين اولادهِ الاحد عشر بعد التبلبل ثم دعيت بعد ذلك ارض اسرائيل نسبةً الى بني اسرائيل الذين امتلكوها واستقلوا بها وطردوا الكنعانيين منها . ثم قيل لها ايضًا الاراضي المقدسة لان الله عز وجل انتخبها واصطفاها لشعبهِ وخصها لعبادتهِ ولا سيما ان المسيح ظهر فيها بالجسد وفيها تم عمل الفداء فحقَّ لها ان تدعى بهذا الاسم وكان يقال لها ايضًا ارض الميعاد بالنظر الى وعد الله لابرهيم انهُ سيعطيهِ اياها ولنسلهِ من بعدهُ . ولا يخفى ان هذه الالقاب المذكورة لم تكن تُنسب وتطلق على جميع بلاد سورية بل اختصت بالجهات الجنوبية فقط واما الجهات الشمالية فكانت مسكنًا للفينيقيين

وفي ايام ابرهيم والآباء الاولين كانت فلسطين منقسمة بين قبائل والخاذ

من طوائف الكنعانيين فكان القينيون والقنزيون والقدمونيون يسكنون الاراضي الشرقية من نهر الاردن وكان الحثيون والفرزيون واليبوسيون والاموريون يسكنون غربي النهر في الاماكن الجنوبية المرتفعة واما الكنعانيون الاصليون فكانت مواطنهم في اواسط البلاد وهي محدودة من شاطي البحر الى نهر الاردن وكانت مساكن الجرجاشيين واقعة على شرقي بحيرة جنبسارت المعروفة الآن ببحيرة طبرية واما الحويون والجبليون فكانوا يسكنون تجاه الشمال بين ربوع لبنان الجنوبية

وفي ايام موسى عند ما قارب الاسرائيليون الدخول الى ارض كنعان لم يكن حدث تغيير يذكر بين القبائل القاطنة يومئذٍ في الجهات الغربية من نهر الاردن غير انه كان شرقي النهر ثلاثة منازل لم تكن معروفة قبلاً وهي ارض باشان الواقعة في الشمال شرقي بحيرة طبرية ثم ارض جلعاد في الوسط ثم ارض مواب في الجنوب شرقي بحر الميت اي بحر لوط . وبعد استيلاء الاسرائيليين على تلك البلاد اقتسموها فيما بينهم بالقرعة فكان سهم سبط يهوذا وبنيامين وشمعون ودان واقعاً في الاراضي الجنوبية التي سميت بعد ذلك باليهودية نسبةً الى مملكة يهوذا عقب انفصالها عن العشرة الاسباط وكان سهم افرايم ونصف سبط منسى ويساكر ممتدًّا في الاراضي المتوسطة المعروفة بالسامرة وسهم زبولون ونفتالي واشير في الاراضي الشمالية التي يقال لها الجليل واما راوبين وجاد ونصف سبط منسى الثاني فكانت منازلهم في عبر الاردن في ارض باشان وجلعاد التي عُرفت فيما بعد باسم بيرية

اما الاراضي الواقعة على شطوط البحر فسكنها الفلسطينيون والفينيقيون والموابيون والعمونيون والمديانيون والادوميون والعماليقيون واما الفلسطينيون مع انهم كانوا قاطنين في سوريا في ايام الآباء القدماء فليسوا بكنعانيين بل نزلاء غرباء والمرجح ان اصلهم من مصر جاءوا الى هذه البلاد وقاتلوا الحويين فتغلبوا عليهم وطردوهم وسكنوا مكانهم وامتدت منازلهم من مدينة يافا الى غزة

وبقيت البلاد في ايديهم عدة قرون وكانوا اشداء الباس وانجهت قوتهم دائمًا لمصادمة بني اسرائيل بعد دخولهم الى ارض كنعان وكثيرًا ما حاربوهم . واما الفينيقيون فمع انهم من بني كنعان لم يحاربهم بنو اسرائيل وكانت ايامهم معهم في صلح وسلام واذ اشتهر هولاء القوم في الازمنة القديمة بالتجارة والغنى وشدة الباس وتقدموا في انواع الفنون والصنائع على غيرهم من الناس ولا سيما ان تاريخهم هو من التواريخ المهمة قد افردنا لهم فصلاً مخصوصًا لاجل زيادة المعرفة في اخبارهم وتفاصيل احوالهم . واما بنو موآب وبنو عمون فهم من ذرية ابنتي لوط ابن اخي ابرهيم سكنوا الاراضي المجاورة شرقي الاردن بعد ما طردوا اهلها منها وكانوا من القوم الجبابرة العتاة . واما المديانيون فهم من ذرية مديان بن ابرهيم الرابع من زوجتهِ الثانية قطورة وكانوا مجاورين الموابيين ومتحدين معهم في حروبهم ومغازيهم وقد انفرز منهم جماعة وسكنوا شرقي البحر الاحمر وعندهم اختبأ موسى عند ما هرب من مصر . واما الادوميون فهم من نسل آدوم او عيسو بن اسحق اخي يعقوب وكانت منازلهم في جبال سعير الممتدة على شرقي وادي عرَبة بين بحر لوط وخليج عيلان وعند سبي اليهود الى بابل اتى الادوميون وسكنوا في الجهات الجنوبية الشمالية من اليهودية ومن ذلك الوقت تسمت تلك الاماكن ادومية اي بلاد الادوميين . واما العمالقة فهم من نسل عمليق بن حام وكانت مواطنهم في الاودية التي في اسفل جبل سينا ثم انتقلوا منها وسكنوا في حدود فلسطين الجنوبية وكانوا من اشد الناس عداوة لبني اسرائيل ولهم معهم جملة وقائع وحروب وبمداولة الايام تمكن بنو اسرائيل منهم وبددوا شملهم واطفأوا خبرهم . فجميع هذه القبائل المقدم ذكرها انقرض اكثرها في زمن الاسرائيليين وبعضها اندرس بعد سبي اليهود الاخير

الباب الثاني

في الدولة السلوقدية ومن خلفها الى هذه الايام

وبعد توفي الاسكندر دخلت سورية تحت حكم سلوقس وهو اول ملوك الدولة السلوقدية واحد قواد جيوش الاسكندر الاربعة الذين اقتسموا بينهم كل البلاد التي اخضعها سيدهم ورئيسهم. فحكم سلوقس عقب وفاة الاسكندر على بلاد مادي وبابيلونيا ثم طرد من تلك البلاد سنة ٣١٥ ق م بواسطة مقاومة انتيغونوس احد القواد الاربعة الذي كان سهمهُ في اسيا الصغرى فهرب الى مصر مستعصمًا ببطليموس فاعانهُ على محاربة انتيغونوس وانتصر عليهِ في موقعةٍ عظيمة جرت بينهما في غزة سنة ٣١٢ ثم رجع الى بابيلونيا فقبلتهُ الاهالي بفرحٍ وسرور ثم ضمَّ الى ولايتهِ ولاية اشور ومادي فصار ملكًا على الولايات الثلاث ولما قويت شوكتهُ اخضع بلاد فارس وكل اسيا العليا وسار من هناك الى الهند لاجل استخلاص البلاد التي كان قد تغلب عليها الاسكندر فالتقاهُ ملكها ساندروكوتوس بستة مئة الف مقاتل وعددٍ كثير من الافيال ولكنهُ لم يقع بينهما حربٌ لان ملك الهند كان قد خاف سطوتهُ فعقد معهُ صلحًا تحت خمس مئة فيل اعطاهُ اياها حتى انحجب عنهُ وعند رجوعهِ الى بلادهِ جهَّز جيشًا عظيمًا وسار بنفسهِ الى قتال انتيغونوس المذكور سنة ٣٠١ ق م فانتصر عليهِ وقتلهُ واضاف مملكتهُ الى بلادهِ وكان من جملة ولاياتها سورية وفريجية وارمينية وما بين النهرين ومدينة انطاكية وهو الذي دعاها بهذا الاسم تذكارًا واعتبارًا لابيهِ الذي كان اسمهُ انطيوخوس وجعلها كرسي مملكتهِ

ويقال ان سلوقوس كان متزوجًا بابنة ديمتريوس بوليوكريت احد

ملوك اسيا الصغرى وكانت جميلة المنظر فاحبها انطيوخوس ابنهُ وتعلق بها تعلقًا شديدًا حتى مرض ولزم الفراش وكان الطبيب يتعجب من عدم تقدمهِ للصحة مع كل المعالجة التي كان يستعملها لهُ فلما وقف اخيرًا على حقيقة الخبر اعلم اباهُ سلوقس بواقعة الحال وان مرض ابنهِ ناتج من شدَّة غرامهِ بابنة ديمتريوس المذكورة فمن فرط محبتهِ بابنهِ تنازل لهُ عن زوجتهِ وزوجهُ بها

ومن ملوك الدولة السلوقدية انطيوخوس الثالث او الكبير الذي غزا الديار المصرية واسر ملكها واساء كثيرًا الى اليهود في اورشليم وجوارها لسبب تمنعهم عن ان يذبحوا للاصنام فقتل منهم عددًا كثيرًا . وقام اخيرًا بين اليهود رجلان من المكابيين وهما متاتياس ويهوذا فحاربا جيوش انطيوخوس وكسراهُ واستقلاَّ بانفسهما على مملكة اليهودية ولما اتصل الخبر بانطيوخوس استشاط غضبًا وبينما كان زاحفًا على اورشليم لينتقم من اليهود وقع عن مركبتهِ فمات

وهذه هي المدة التي فيها كانت سورية في ازهى وابهى رونق لانها بعد ذلك ضعفت شوكتها وانحطت منزلتها وصارت ملحقة بغيرها وكثيرًا ما تفرعت وانقسمت . واستمرت تحت احكام الدولة السلوقدية الى سنة ٦٤ ق م حين اتى الرومانيون واستولوا عليها الى نحو سنة ٦٣٨ للمسيح ثم افتتحها المسلمون ومن ثم صارت مركزًا لخلفاء الدولة الاموية التي جعلت تخت كرسيها في مدينة الشام ثم انتقلت من بعدهم الى الخلفاء من بني العباس واستمرت تحت قبضة احكامهم الى سنة ٨٢٣ حين دخلت تحت تسلط بني طولون الذين كانوا حكامًا في مصر من طرف الدولة العباسية واستقلوا فيها مدةً وبقيت تابعة لهم الى سنة ٩٠٥ حين انقلبت الدولة الطولونية عن تختها وقامت مكانها الدولة الفاطمية فصارت سورية من جملة ملحقاتها وتوابعها الى سنة ١٠٧٨ حين جاءت الدولة السلجوقية التركمانية وتغلبت على البلاد العربية الشامية الى سنة ١١٤ وفي مدة الدولة السلجوقية اتت طوائف الافرنج المعروفة بالصليبية وذلك سنة ١٠٩٨ وطردوا المسلمين من بعض جهات البلاد واستولوا على انطاكية والقدس وصور وطرابلس

اما الشام وحلب مع باقي البلاد الداخلية فاستمرت في ايدي المسلمين

وفي مدة اقامة الصليبيين في الديار الشامية كانت حروبهم مع المسلمين متصلة بدون انقطاع ولا انفصال تارةً توخذ منهم القدس والبلاد المجاورة لها وتارةً يسترجعونها كما سياتي بيان ذلك مفصلاً في الكلام على الحروب الصليبية الى ان طردوا اخيرًا سنة ١٢١٠ في زمن دولة المماليك فصارت سورية من ذلك الوقت تابعة لدولة مصر وبقيت خاضعة لاحكامها الى سنة ١٤٠٠ حينما افتتحها تيمورلنك المغولي الشهير ثم رجعت بعد ذلك الى سلطة دولة المماليك المصرية واستمرت في ايديهم الى سنة ١٥١٧ حين اتى السلطان سليم الاول من بني عثمان فاستخلصها منهم ونزع احكامهم ومن ذلك الوقت صارت سورية تابعة الدولة العثمانية ما خلا بعض مدّات وجيزة حين تظاهرت فيها العصاة تارةً في زمن الامير فخر الدين المعني سنة ١٦٣٥ وتارةً في زمن احمد باشا الجزار البشناقي المشهور في الظلم والعدوان الذي ذاقت الناس في مدة حكمهِ ٢٨ سنة عذابًا شديدًا

وسنة ١٧٩٩ اتى الفرنساويون من مصر لافتتاح الديار الشامية تحت قيادة الجنرال نابوليون بونابارت فاستولوا على غزة وعسقلون ويافا وغيرها ثم وصلوا الى عكا فحاصروها مدةً فقاومهم احمد باشا الجزار برًّا والادميرال سروليم سدني سميث الانكليزي بحرًا فانصرفوا عنها بعد ان كادوا يتملكونها

ثم في سنة ١٨٣١ اتى ابرهيم باشا قائد الجيوش المصرية في زمن السلطان محمود وحاصر عكا التي كانت يومئذٍ مركز الولاية الشامية وافتتحها بعد ما حاصرها ثمانية اشهر وقبض على واليها عبد الله باشا وارسلهُ الى مصر وشرع في تحصينها وتحصين باقي المدن الشامية وما زالت تحت تصرف احكامهِ الى سنة ١٨٤٠ حين استرجعتها الدولة العلية بمساعدة انكلترا وغيرها من الدول الاجنبية ولم تزل الى الآن باقية تحت تسلطها

وفي سنة ١٨٦ اصطلت نار الفتنة في جبل لبنان بين النصارى

والدروز فامتد شرارها الى مدينة دمشق وهاج جَهَلة المسلمين على المسيحيين القاطنين بينهم فقتلوا منهم على ما قيل ما ينوف على الالفين ونهبوا بيوتهم وسلبوا امتعتهم فكانت مذبحة هائلة وربما كانوا افنوهم عن اخرهم لولا توسُّط الامير عبد القادر الجزائري الذي ارسل رجالهُ الى كل شارع وزقاق وخلص كثيرين واتى بهم الى منزلهِ افواجًا افواجًا فكان ذلك داعيًا للثناء عليهِ من كل لسان على الارض . وكان الوالي يومئذٍ في الشام فلم يلتفت الى توقيف الهياج كأنهُ راضٍ بما حدث فجازتهُ الدولة بالقتل عند قدوم فواد باشا للتحقيق وجرت المصابين بتعويض ما فقدوهُ واحسنت ببناء البيوت المهدومة وارجعت الراحة في وقت وجيز . واما فتنة الجبل فقد ذكرت عند ذكر لبنان

الباب الثالث

في شعوب سورية ومدنها الشهيرة مع ذكر الملكة زينب المعروفة عند اليونان واللاتين بزينوبيا وشيءٍ من اخبار لبنان

اما شعوب سورية فهي ممتزجة من اجناسٍ كثيرة يعسر تاصيلها والمرجح انهم من نسلٍ مختلط اي عربي وتتري وتركي وفارسي واوروبي والاديان فيها كثيرة فانهُ ما عدا المذاهب النصرانية ومذهب الحكومة فيها جملة طوائف قلما توجد او تعرف في باقي ممالك العالم كالدروز والمتاولة والنصيرية والاسماعيلية والسَّمَرة . وفيها ايضًا قبائل كثيرة من عرب البادية شرقي سورية وجنوبيها الذين الى الآن مع كونهم من تبعة الدولة العلية لا يزالون بعيدين عن الطاعة

والانقياد وكثيرًا ما يتظاهرون بالتمرد والعصيان وقلما يوجد بينهم أمنٌ وسلام وهم جموعٌ وقبائل كثيرة متفرقة لو صار الالتفات الى اخضاعهم وتهذيبهم لنشأ عن ذلك فوائد عظيمة للسلطنة لانهُ فضلاً عن تقدمهم بالمعرفة والتمدن ونجاح البلاد بالمكاسب والغنى تزداد المملكة قوةً وسطوةً اذ يمكنها عند الحاجة ان تقيم منهم نحو ثلاث مئة الف مقاتل برسم المحافظة والحاماة

ومن مدن هذه البلاد مدينة انطاكية وهي من اشهر واعظم مدنها القديمة بناها سلوقوس سنة ٣٠٠ ق م وفيها ولد لوقا الانجيلي وبها تسمت النصارى مسيحيين اولاً ومن مدنها ايضًا دمشق وهي قديمة من عهد ابرهيم سكنها ملوك غسان وفي سنة ١٤ للهجرة افتتحها عمر بن الخطاب تحت قيادة خالد بن الوليد ونقل بنو امية تخت الخلافة اليها سنة ٦٣٤ مسيحية وقد تكرر ذكرها في التوراة في جملة اماكن تحت اسم ارام . وفي هذه المدينة كان اهتداء بولس العجيب الى الديانة المسيحية وفيها كانت تصنع قديمًا الاسلحة الفاخرة المشهورة كالسيوف والحراب والخناجر وغيرها واما الآن فقد فقدت منها هذه الصناعة لان تيمور لنك نقل الى بخارا جميع صناع هذه المهن والصنائع ولم يزل لها شهرة الى الآن في نسج بعض الاقمشة الحريرية وفي شغل الصدف الملبس على الخشب المعروف بعرق اللولو

ومنها تدمر والافرنج يسمونها باميرا اي محل النخل . قيل بناها الملك سليمان بن داود وقد انكر بعضهم صحة هذا الخبر مستشهدًا بكلام المورخ يوسيفوس حيث يقول ان سليمان مد حدود مملكتهِ الى اماكن بعيدة واخذ تدمر وحصنها بالاسوار وسماها تدمر فلو لم تكن تدمر حينئذٍ مدينة كبيرة متجرية لما همَّ سليمان امتلاكها . ومع ان هذه المدينة قد اندرست وليس لها وجود الآن فان خربها وآثارها القديمة تدل على عظمتها السالفة . ومن ملوك تدمر اوديناتوس زوج زنوبيا الشهيرة فانهُ في اول امرهِ كان مساعدًا لسابور ملك الفرس عند استفتاحهِ بلاد سورية سنة ٢٥٦ للبلاد ولكنهُ اتحد اخيرًا

مع الرومانيين وسعى في طردهِ من البلاد . فلما وقع الامبراطور فالريان في ايدي الفرس طلب اوديناتوس ان يعقد صلحًا مع سابور فلم يستجب طلبهُ ودعاهُ سابور خائنًا فاغتاظ اوديناتوس من ذلك وخرج على سابور وحاربهُ وقهرهُ على شطوط الفرات ثم استظهر ايضًا على بعض قواد الرومانيين الذين كانوا قد جاهروا بعصيان ضد السلطنة في ايام الامبراطور غلينوس ونكّس مشروعاتهم . فلاجل مكافاتهِ على تلك الصداقة لقبهُ غلينوس رئيس كل الولايات الشرقية ولكن لم يقبل اوديناتوس ذلك اللقب والزم الامبراطور ان يقر لهُ بالشراكة في السلطنة فجعلهُ شريكًا لهُ سنة ٢٦٤ وبعد ثلاث سنين توفي قتيلاً

وبعد موت اوديناتوس تبوأت تخت الملك زوجتهُ زنوبيا وانفردت بزمام الاحكام وجددت كثيرًا من القصور والابنية العظيمة حتى صارت مدينة تدمر في ايامها جنة من جنان الدنيا وامتدت حدود مملكتها من ساحل بلاد صور والشام الى نهر الفرات والعراق وكانت قوية الجنان نادرة الزمان تخطب على العساكر والابطال وتحضر معهم الى ساحة الحرب والقتال فقويت شوكتها واشتهرت صولتها ودعت نفسها ملكة الشرق ولما بلغ مسامع اورليان قيصر ان مملكة تدمر كادت تفوق مملكتهُ عظمةً وغنىً داخلهُ الحسد فاخذ يستعد لمحاربتها وحضر الى الشام بجيش جرار وكانت هي ايضًا قد زحفت بجيوشها لقتالهِ فانتشبت بينهما نار الحرب بقرب انطاكية فانتصر عليها نصرة عظيمة ثم صدمها مرةً اخرى بالقرب من مدينة حمص فانثنت راجعة الى تدمر فتبعها الى هناك وضيّق عليها الحصار ومنع عنها الامداد وبعد عدّة وقائع افتتح المدينة عنوةً واسر زنوبيا واخذها الى رومية وعوّضها عن مملكتها قصرًا عظيمًا واقام لها نفقةً لتعيش بها مدة حياتها

وكان اورليان لما فتح تدمر سنة ٢٧٢ للميلاد قد ترك فيها عددًا قليلاً من العساكر برسم المحافظة فقتلهم الاهالي ولما اتصل باورليان هذا الخبر شق عليهِ

فعاد راجعاً الى تدمر وقتل اهلها ونهب المدينة ثم رممها بعد ذلك بمدة قصيرة ولكنها لم ترجع قط الى رونقها وبهائها الاول ومن ذلك الوقت اخذت في الانحطاط شيئاً فشيئاً حتى انهُ لم يبقَ في هذه الايام من تلك المدينة العظيمة سوى رسوم دارسة واطلال بالية وبعض اكواخٍ حقيرة مكان تلك الحصون الشاهقة والمراسح والقصور المبهجة المزخرفة والمزينة باجمل اعمال البشر

ومن مدن سورية ايضا مدينة بعلبك التي كانت تدعى هليوبوليس اي مدينة الشمس وكانت من اعظم الابنية القديمة ولاسيما هيكلها الكبير الذي بناهُ انطونيوس بيوس احد قياصرة رومية سنة ١٤٥ بعد المسيح وكان قد حوّلهُ الملك قسطنطين الى كنيسة مسيحية وقد بقي رونقهُ وبهجتهُ زمناً طويلاً واما في هذه الايام فلم يبقَ الاَّ خرابهُ وبعض اعمدة عظيمة منتصبة لا يقدر على اقامة مثلها من الملوك الاَّ من كان صاحب ثروة وباس . ثم استولى على بعلبك ابو عبيدة بن الجراح احد قواد عمر بن الخطاب ثم افتتحها تيمور لنك سنة ١٤٠١ وفي سنة ١٧٥٩ حدث زلزلة عظيمة هدمت الجانب الاعظم منها . ومنها مدينة حلب الشهباء وهي قديمة العهد مبنية في برية خالية من الاشجار يأتي ملؤها من مكانٍ شمالي المدينة ببعد نحو ثلاث ساعات ويكثر في غياضها شجر الفستق ومن ابنيتها المشهورة قصرٌ قديم يقال لهُ سراية بني جنبلاط كان لاسلاف المشائخ بني جنبلاط الذين هم من اعيان مناصب جبل لبنان وقد هدمت الزلازل اماكن كثيرة من هذه المدينة وقتلت اناساً كثيرين ولاسيما الزلزلة التي حدثت سنة ١٨٢٢ فانهُ قد مات بها نحو عشرين الف نفس

ومنها بيروت احدى مدن فينيقية الذي ولد فيها سانخونياتون المورخ الشهير صاحب المؤلفات في ديانة الفينيقيين والمصريين والرسائل النافعة في الطبيعيات وغيرها وقد ترجم بعضها الى اللغة اليونانية في القرن الثاني بعد المسيح ولم يبقَ منها الاَّ بعض حواشي وقطع طبعت على حدتها سنة ١٨٢٦ وقد ظن البعض ان هذا المؤرخ كان معاصراً للملكة سميراميس وقال آخرون

انهُ كان في عهد موسى ومنهم من جملهُ قبل المسيح بالف ومايتين سنة وقيل ست مئة فقط . ومما يُعرَف من امر بيروت انهُ وقت تملك الرومانيين البلاد الشرقية قصدها جماعة منهم وسكنوها في زمن الملك اوغسطس قيصر الذي اعطاها كل حقوق المدن الرومانية الاصلية وسماها جوليا فيلكس على اسم ابنتهِ وفي الجيل الثالث بعد المسيح اشتهر فيها مدرسة لعلم الفقه فكانت تأتي اليها التلاميذ من مصر وبلاد اليونان ولقِّبت يومئذٍ بمدينة العلماء . وقد تناول هذه المدينة كل من استولى على فينيقية من الاشوريين والفرس واليونان والرومان والمسلمين . وفيها بعض اثار تدل على قدمينها وقد دخلت في القرون المتاخرة تحت ايدي الامراء التنوخية والامراء بني معن والامراء بني شهاب ولهم فيها ابنية تعرف باسمائهم الى الآن

واما جبل لبنان الممتد من شرقي طرابلس الى مرج ابن عامر فكانت سكانهُ قديمًا على حسب نص الكتاب المقدس من طوائف الحويين والجبليين ثم خصصهُ يشوع بن نون لسبط اشير من بني اسرائيل ولكنهُ لم يتيسر لهم ان يتملكوا منهُ الاَّ جانبًا فقط وكانت بعض اقاليمهِ في مدة حكم اليهود تحت تسلط الفينيقيين الذين كانوا يانون منهُ بخشب الارز والسرو وغير ذلك ويتاجرون فيها . وقد تناول هذا الجبل قديمًا امم كثيرة لم تزل اثارهم فيهِ الى هذا اليوم فانهُ وجد في بعض قرى جبل الشوف صنم مصريٌّ وصنم اشوريٌّ ونقود ضرب الدولة السلوقدية ونقود رومانية وعربية . ويوجد منقوشًا على صخور نهر الكلب بعض التماثيل والكتابات تدل على غلبة المصريين القدماء وولاية الاشوريين ويوجد ايضًا في دير القلعة وغير جهات رسوم واثار رومانية واعمدة وقنوات عظيمة دالة على الامم الذين استولوا عليهِ . وكان لاهالي هذا الجبل شوكة قوية في اوائل النصرانية حتى انهم كانوا يجدون قياصرة الروم وسنة ٦٩٤ للمسيح ارسل الامبراطور يوستنيان اثنين من قوادهِ مع جيش عظيم لقصاص اللبنانيين لانهُ كان قد طلب امدادهم في حروبهِ ببلاد الغرب فلم يجدوهُ

فحاربوا جيشهُ وكسروهُ وقتلوا قوادهُ فسموا مَرَدَةً وهم امراء المردة وكانت بداية ولايتهم تحت هذا اللقب من سنة ٦٠٠ للمسيح وسنة ٨٣٠ اقبل الامير تنوخ الملقب بالمنذر من اطراف بلاد العرب في قبيلة تنوخ وهي اسم لثلاث قبائل من نصارى العرب وتوطن بعشائرهِ في نواحي لبنان الخالية من السكان وبنوا فيها القرى وسكنوها وكان الامير تنوخ يحكم فيما بينهم وبنوهُ من بعدهِ الى سنة ١٦٣٣ حين انقرضت السلالة التنوخية . وسنة ١١٣٠ كان قد جاء الامير معن الايوبي مع عشيرتهِ الى الشوف ونزل في صحراء بعقلين واظهر مودةً عظيمة لآل تنوخ امراء العرب وانفرد بولايات الشوف واستمر اميرًا وحاكمًا مدَّة ٢٠ سنة الى ان مات وهو جد الامراء المعنية واليهِ ينتسبون واستمرت احكام الشوف في ايدي الامراء من بني معن الى ان انقطعت سلالتهم سنة ١٦٩٧ وكان آخر من تولى منهم الامير احمد . ثم تولى من بعدهِ الامراء آل شهاب وكانوا جميعهم ينقادون الى طاعة وزراء الدولة العلية المتنصبين على ايالة صيدا وكان الوزير يولي منهم من يشاء وهم يولون ويعزلون على القطائع والاقاليم من شاءوا من المشائخ والامراء . والشهابيون هم من شرفاء العرب وينتسبون الى بني قريش كانوا قد حضروا قديمًا الى هذه الديار وسكنوا وادي التيم فتنصر بعض كبرائهم واخذوا مركزًا في لبنان

ومن افاضل حكام لبنان الذين اتصفوا بالادارة والسياسة الامير بشير الشهابي كان رجلاً مهيبًا فطنًا تناول ولاية لبنان من ابن عمهِ الامير يوسف وهو في سن الثانية والعشرين وكان السبب في انحايهِ حاكمًا سوء تصرف الامير يوسف المذكور وظلمهُ في البلاد على ما قيل واستمر الامير بشير في ولايتهِ الى سنة ١٨٤٠ حين استولت الدولة العلية على سورية فخرج من البلاد مع من يلوذ بهِ الى جزيرة مالطة وذلك لسبب عدم تسليمهِ عند ما دعوهُ الى التسليم ثم توجه الى القسطنطينية وتوفي هناك وتولى مكانهُ الامير بشير قاسم وكان المذكور لا يعتبر مناصب البلاد ولا يحسب حسابهم ويقال انهُ كان يسيء

الادب في مجالسهم ويتفوه بكلام تكرههُ اسماعهم فكرهوهُ واضمروا له السوء فحاصروهُ في دير القمر وبقي تحت الحصار الى ان حضر السيد عبد الفتاح اغا حماده بامر المشير في بيروت واخرجهُ من دير القمر وحضر بهِ الى بيروت ومن هناك انفرضت احكام الامراء الشهابيين في جبل لبنان. واذ كانت الفتنة قد اتسعت بين الدروز والنصارى في تلك الايام قسمت الدولة العلية احكام البلاد الى شطرين فاقامت قائمقامًا نصرانيًا على النصارى في القسم الشمالي وقائمقامًا درزيًا على الدروز في القسم الجنوبي

وسنة ١٨٦٠ تعاظمت الفتنة وكثر الفساد بين النصارى والدروز في لبنان حتى آل الامر لوقوع حرب اهلية بين الطرفين وكانت النتيجة ردية على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمامهم وانقيادهم بعضهم مع بعض ففتكت بهم الدروز في مذبحتي حاصبيا وراشيًا الواقعتين في ٢٠ و ٢١ ايار من السنة المذكورة ثم في حصار زحلة ونكبة دير القمر التي قتل فيها نحو ٦٠٠ شخص ذبح اليد وهم محصورون في دار الحكومة حيث كانوا التجوا لصيانة انفسهم فكثر الويل وعظم الشر وتقاطر الناس الى بيروت فارسل الباب العالي فواد باشا ليمهد الامور وينتقم من المذنبين وارسلت فرانسا باختيار الدولة العلية ورضاها عشرة الاف جندي للمحافظة ومنع التعدي عند الاقتضاء وكذلك باقي الدول الافرنجية منها من ارسل مراكب حربية ومنها من ارسل نوابًا لاصلاح الحال وتمهيد الامور وبعد اجراء ما يلزم اجراؤهُ من التحقيق ونفي كثيرين من مشائخ الدروز الى بغداد وغير اماكن لاجل اشتراكهم في تلك الفتنة استحسنت الدولة باتفاق الدول على وضع نظامات جديدة لهذا الجبل وهي ان تحول احكامهُ الى ادارة محلية لايكون لولاة سورية دخلٌ بها تحت مناظرة مشير من الطائفة النصرانية من غير اهالي الجبل ليكون متصرفًا بهِ ويشاور راسًا الباب العالي فتوجهت المتصرفية لعهدة دولتلو داود باشا الارمني فاقام بماموريتهِ حق القيام واستمر بالولاية ست سنين وفي مدة احكامهِ حدثت الفتنة الكرمية نسبةً الى

يوسف بك كرم الذي قيل انهُ رئيسها ومثيرها واستمرت نحو اثني عشر شهرًا ولكنهُ اضطر اخيرًا ان يخضع ويسلم نفسهُ بواسطة فرانسا وانتهى بهِ الحال بنفيهِ من البلاد . وبعد قيام داود باشا من لبنان حضر مكانهُ صاحب الدولة نصري فرانقو باشا سنة ١٨٦٩ فتولى زمام لبنان وقام باعباء الاحكام كما يجب وفي اوائل سنة ١٨٧٢ توفي وتنصب عوضًا عنهُ دولتلو رستم باشا وهو ايطاليّ الاصل مشهودٌ لهُ في حسن السياسة والاستقامة فحكم الجبل عشر سنين واستراح الاهلون في كل مدة حكمهِ ثم خلفهُ صاحب الدولة واصه باشا سنة ١٨٨٤ وهو المتصرف الحالي

الفصل التاسع

في تاريخ فينيقية

الباب الاول

في اصل الفينيقيين وعوائدهم واديانهم واكتشافاتهم

انهُ لا يعلم بالتحقيق اصل هذا الشعب غير انهُ من نحو اربعة الاف سنة اخذت سواحل بحر الروم تعمر بسكانٍ جاءوا اليها من بلاد الشرق ولكن

من اين جاءوا وكم كان عددهم ومن هم السكان الذين كانوا قبلهم لا نعرف من ذلك شيئًا ولا نعلم ايضًا حقيقة الاسم الذي عرفوا بهِ في الاصل ولكننا نعلم انهم اشتغلوا نحو الفي سنة في هذه السواحل وبنوا فيها المدن والحصون وفاقوا مَن سواهم في الفنون والصنائع وانفردوا بالشوكة والبأس وصاروا من اشهر القبائل وشاع ذكرهم في اقطار العالم

ولُقِّبوا بالكنعانيين نسبةً الى كنعان بن حام بن نوح كما يشير الى ذلك التاريخ الموسوي ثم لقبوا بالفينيقيين وهو اسم يوناني غلب عليهم فان لفظة فينيكيس التي نسبوا اليها انما هي اسمٌ للنخل في اللغة اليونانية او بالحرى للتمر وهي تدل في الاصل على اللون لا الجوهر اي على لونٍ اسمر مائل الى الاحمرار كلون ثمر النخل في بعض احوالهِ وهي ايضًا اسمٌ لرداء ارجواني كان الفينيقيون يلبسونهُ . وكان النخل في تلك الايام كثيرًا جدًّا في فينيقية حتى صارت صورة هذه الاشجار رمزًا الى الاهالي والبلاد فكانوا يصورونها على نقودهم . ويقال ان تجارهم اختلطوا كثيرًا مع اليونان وحملوا الى بلادهم اثمار الفينيكيس اي النخل برسم التجارة فغلب عليهم هذا اللقب ثم على بلادهم الى ان اصبح اخيرًا يدل على لونهم المائل الى الحمرة . ويظن الاكثرون ان هذا اللون كان لون الفينيقيين الحقيقي وذلك مما يؤيد القول بانهم كانوا من اصل حاري او افريقي . وكانوا من اعظم الشعوب تمدنًا ومن اشهر قدماء الامم وكان تجارهم من اغنى الناس حتى قيل انهم لغناهم كثرت عندهم الفضة واثقلتهم في اسفارهم فكانوا يضعونها في الزنابيل ويتخذونها لتعديل المراكب عوضًا عن الرصاص

وهم الذين اخترعوا بناء السفن واول من سافروا بحرًا وكانت تجارة العالم البحرية في ايديهم . وقد ارسلت ملوكهم جماهير عديدة الى اماكن بعيدة من الارض ليستوطنوها ويعمروها وبذلك انتقلت اثار صنائعهم وامتدت دائرة لغتهم ومعارفهم الى جميع الجهات . وقد اجمع راي الاكثرين على انهم هم الذين اعطوا اليونان والرومان احرف كتابتهم واقدم علومهم . ومن العجب انهم مع

قدميتهم وكثرة فروعهم في جهات مختلفة من العالم قد تلاشوا وانقرضوا من زمانٍ طويل ولم يبقَ لنا من اثارهم الاَّ القليل

اما صنائعهم فكانت متنوعة وكانوا يصيغون كل انواع الحلى من الذهب والفضة وغير ذلك من انواع النقوش والزينة والمعادن والعاج وينسجون

عشتروت الهة السوريين والفينيقيين

اجناس الاقمشة فان الانسجة الفينيقية كانت ذات شهرة ورواج في كل العالم وقيل انهم اول من اخترعوا عمل الزجاج . اما عوائدهم فكانت ذميمة وقبيحة فكانوا يحبون التخنث والترفه ويحتقرون الغرباء . وقد تنبأ الانبياء على صور عاصمتهم بالتهديد الهائل والخراب وتم ذلك فيها فيما بعد عند ما كانت في ابهج

رونقها واعظم سطوتها واقتدارها . واما ديانتهم فكانت وحشية بربرية ايضاً كبعض عوائدهم فكانوا يعبدون الاصنام والمنحوتات ومن اعظم آلهتهم بعل ويدعى مولوك ايضاً اي اله الشمس . واشهر ما قدموا لهذا الاله الذبائح البشرية من الاولاد الصغار فكانوا يطرحونهم احياء على ذراعيهِ المحماتين بالنار.

مولوك اله بني عمون عند الفينيقيين

وكان ذلك الاله مصنوعاً من نحاسٍ ولهُ راس عجل مكلَّل بتاجٍ ملكي وذراعاهُ ممدودتان كانهُ مستعدٌّ لاحتضان من يقدم لهُ . فكانوا يضرمون تحتهُ ناراً مهلكة الى ان يحمى فيلقوا الولد التعيس الحظ على ذراعيهِ فلا يلبث ان يموت لشدة الحرارة فيا لها من قساوة بربرية

الباب الثاني

في ذكر مدائن فينيقية وتخومها وتجارتها ونقدها ثم انحطاطها

ان التاريخ الموسوي يبين لنا ان صيدون اي صيدا كانت في تلك الايام

اقصى حدود فينيقية شمالاً وغزة اقصى حدودها جنوبًا وان عيالاً كثيرة من الاهالي الاصليين امتدت في داخلية البلاد الى نواحي فلسطين الجنوبية وسكنت في جبال اليهودية وفي السهول المجاورة بحيرة لوط والاردن ولم يزالوا ساكنين في تلك الجهات الى ان حاربهم بنو اسرائيل وطردوهم في زمان يشوع بن نون وتملكوا اراضيهم ولم يعد لهم ذكر بعد ذلك كقبائل ممتازة . واذ كان الفلسطينيون قد اخذوا من ايام ابرهيم وربما قبلهُ يزاحمون الفينيقيين المستوطنين في الجهات الجنوبية حتى ازاحوهم عن مواطنهم وابعدوهم بالتدريج نحو الشمال الى دور عند جبل الكرمل كان يلزمنا ان نجعل اول حدود فينيقية الجنوبي من جبل الكرمل واما من جهة الشمال فان موسى لم يذكر الاَّ صيدون ولكن ذلك لا يحدد تخمهم الشمالي لان صيدون كانت في تلك الايام عاصمة كل الامة . واما باقي قبائل الفينيقيين الذين كانوا مقيمين شمالي صيدون فربما كانوا ضعفاء لا يستحقون الذكر الخاص ومن ثم دخلوا تحت اسم صيدون العام

واما تخوم الفينيقيين الى جهة الشرق وان تكن غير معروفة تمامًا فليس لنا دليل على انها امتدت الى مسافة اكثر من عشرين الى ثلاثين ميلاً عن شاطي البحر . فبناء على ذلك تكون المملكة الفينيقية التي اشتهرت بهذا المقدار قديمًا قد انحصرت في رقعةٍ ضيقة من الارض ممتدة من سواحل البحر الى قاعدة الجبال من جهة الغرب

ففي هذه الرقعة الضيقة بنيت جميع تلك المدائن الشهيرة التي خاضت سفنها جميع البحار . اعني عكا واكزيب التي يقال لها اليوم الزيب وصور وصرفند وصيدون وبيروت وجبيل والبترون وعرقا وارواد وجبلة وزمرة وسين ومدنًا اخرى كثيرة قد فقدت اسماؤها الاصلية وسميت باسماء يونانية ورومانية كطرابلس واللاذقية وغيرها واعظم هذه المدائن واقواها واوسعها تجارة مدينة صور فانها كانت اقواها واغناها وهي وحدها التي نعلم بعض ابناء ملوكها كحيرام الذي كان بينهُ وبين الملك داود وولدهِ سليمان عهود ومواصلات .

ولم تكن فينيقية جميعها لملكٍ واحد بل كان لكل مدينةٍ منها ملك خصوصي والمرجح ان الجميع كانوا خاضعين لمجلسٍ واحد عمومي كما هو جارٍ الآن في الاتحاد الالماني على انهُ لم يكن لملوكها سلطة مطلقة نظرًا لسطوة اشرافها وكهنتها

والذي اوصل فينيقية الى هذه الدرجة من التقدم والشهرة اولاً وجودها على شاطي البحر ووجود موانٍ متعددة فيها . ثانيًا اشتغال الامم المجاورة لها بحروب متصلة بحيث لم يكن لهم فرصة لمزاحمتها في تجارتها . ثالثًا لقلة خصب اراضيها التي لم تكن تكفي عدد سكانها فاضطروا ان يهتموا بامر معيشتهم في الاماكن الخارجة عن بلادهم وكان ذلك موضوعًا لابراز همتهم وواسطة لغناهم وساعدهم على ذلك احتياج البلاد المجاورة لهم الى ما كان عندهم من انواع اصناف التجارة نظرًا لتاخير تمدنهم وهكذا غنيت في مدة وجيزة واغنت مدنًا كثيرة حتى لم يبقَ في مجاورة بحر الروم فرضة او مملكة الاَّ وصل اليها اهل فينيقية وليس ذلك فقط بل امتدوا الى البحر المحيط ودخلوا جبل طارق ووصلوا الى بلاد الانكليز وسموها ارض القصدير بعد ان مروا بايطاليا وفرانسا واسبانيا فاتسعت بذلك تجارتهم وكثر غناهم ثم امتدوا ايضًا الى البحر الاحمر وتوسعوا مع اهل مصر والخليج العجمي واسيا الصغرى حتى الى الهند هذا اذا تذكر الامم المجاورة لهم التي انفادت طبعًا للتجارة معهم .فكانت فلسطين تمدهم بالحاصلات الزراعية مثل اصناف الحبوب والزيت والخمر . وبابل بانواع المنسوجات من القطن والحرير والصوف والكتان . وقرطاجنة بالذهب والفضة وانواع المعادن الثمينة . وبلاد روسيا واليونان بالنحاس وانواع المعادن الثقيلة . وكبدوكيا واسيا الصغرى بالخيول وانواع المواشي . والهند والعرب بانواع الجواهر واللآلي والعاج والعطريات والاقاوية والانسجة الثمينة.والخلاصة انهُ لم يبقَ صنفٌ من الاصناف المعهودة بتلك الازمنة الاَّ وادخلوهُ بتجارتهم ولاسيما مدينة صور لانها كانت امًّا لتلك المدائن واعظمها سطوةً وغنى ومجدًا

فمن المعلوم انهُ بوجود وسائط كهذه للتقدم والغنى عظمت صور ونمت

وزهت وسميت ام البحور وكثرت سكانها وشعوبها بهذا المقدار حتى ضاقت بها البلاد فاضطر اكثرهم للخروج الى جهاتٍ مختلفة وسكنوها وفي مدة قصيرة ظهرت منهم ثلاث مدن وهي اوتيك وكاديشة وقرطاجنة . ومن ذلك الحين اخذت تجارة صور تتحول شيئًا فشيئًا الى مدينة قرطاجنة . وما زالت صور بحالة النجاح والنمو الى ان زحف اليها شلمناصر ملك اشور سنة ٧٢٤ ق م فحاصرها مدة خمس سنوات ولم يتملكها وما برحت في عظمتها وسطوتها الى زمن نبوخذنصر عند ما دهم فينيقية سنة ٥٧٣ ق م وفتح جميع مدنها في مدة قصيرة الاَّ مدينة صور فانها ثبتت نحو ثلاث عشرة سنة تحت الحصار ولكنها اخيرًا خضعت لعدوها . ثم بعد ذلك استولت الفرس عليها وعلى جميع جهات فينيقية وكان كثيرون من الاهالي يهاجرون من بلادهم ويقصدون قرطاجنة . وما زالت على هذا الحال الى سنة ٣٣٢ ق م حين جاء الاسكندر المكدوني وفتح فينيقية وحاصر صور حصارًا شديدًا مدة سبعة اشهر وخرب الجانب الاعظم منها وقتل وباع كثيرين من اهاليها . فمن ذلك الوقت ضعفت شوكتها ولم تعد تقدر على منازعة قرطاجنة من الجهة الواحدة والاسكندرية الناشئة حديثًا من الجهة الاخرى . فاخذ مجدها يتنازل ويتقهقر وينتقل رويدًا رويدًا الى هاتين المدينتين . وبعد موت الاسكندر اقتسم قوادهُ الاربعة ممالكهُ المتسعة فكانت فينيقية تابعة للولاية البطليموسية المصرية ولكنها من ذلك الزمان لم تعد تنمو وما زالت في انحطاطٍ وهبوط من وقتٍ الى آخر حتى وصلت الى الدرجة المعروفة بها الآن ولم يبقَ من اكثر تلك المدن العظيمة الشان كصور وصيدا وجبيل والبترون وغيرها سوى رسومٍ دارسة وابراجٍ دائرة واسوار متهدمة وقرًى حقيرة من بقايا تلك الامة الشهيرة التي تلاشت وانقرضت فسبحان من يغير ويقلب الاحوال ولا يعتري ملكهُ تغيير ولا زوال

الفصل العاشر

في الحروب الصليبية

الباب الاول

في منشأ الحروب الصليبية الى نهاية اعمال التجريدة الثانية

ان السبب في اثارة تلك الحروب رجلٌ اسمهُ بطرس الناسك كان متزوجًا وذا اولادٍ ولكن لاسباب لا يعلمها الاَّ الله ترك عائلتهُ وترهب وانفرد سائحًا متنسكًا وبعد مدة التصق ببعض الزوار كانوا ذاهبين لزيارة الاراضي المقدسة في فلسطين فزار مدينة القدس وهناك اخذتهُ الحمية على ان يسعى في استخلاص تلك الاماكن من ايادي المسلمين فبرجوعهِ الى ايطاليا اجتمع مع البابا اوربانوس الثاني وخاطبهُ في ذلك باسطًا امامهُ حالة المسيحيين الشقية في الشرق فوافقهُ البابا على افكارهِ وعزم في الحال على اتخاذ الوسائط المقتضية لاتمام هذا المشروع فامر بطرس ان يجول في اقطار البلاد مناديًا ومبشرًا للشعوب بانقاذ النصارى واستخلاص اورشليم من ايدي المسلمين

فاخذ بطرس يجول من مكان الى آخر منذرًا ومحركًا قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل . فاجتاز من ايطاليا الى فرانسا والى اكثر جهات ممالك اوروبا زارعًا بين الجميع هذه الافكار ومهيجًا اياهم للنهوض والقيام وفي اثناء ذلك عقد البابا اوربانوس عدة مجامع في ايطاليا وفرانسا وطرح فيها هذه المسئلة امام جمهور الحاضرين منهضًا هممهم للمبادرة والاستعداد

في هذا المشروع . ولاجل ترغيبهم في ذلك وتنشيطهم اشهر انعامات خصوصية لكل من يشترك في هذا الامر . فكان الانعام الاول ابطال التاديبات القصاصية المفروضة بقوانين ثقيلة على الخطاة الذين بذهابهم الى بلاد فلسطين كانوا يعفون عن ثقل وصرامة قوانين التوبة التي كانوا ملتزمين بممارستها . الانعام الثاني ان المحاربين الصليبيين يعفون من دفع الفوائد . الانعام الثالث ان كل من يصدر منهُ اغتصابات غير عادلة نحو جنود الصليبيين يكون تحت الحرم الكبير الاناثيما . الانعام الرابع ان جميع الصليبيين وافراد عيالهم مع كل نوع من ارزاقهم وامتعتهم يكونون تحت حماية الكنيسة الجامعة والرسولين بطرس وبولس . فنهض حينئذٍ احد الاساقفة وطلب من البابا انهُ يكون اول من يجاهد في هذا السبيل فسلمهُ البابا راية الصليب وتبعهُ جملة من روساء الدين ومن عامة الناس ورسموا جميعًا على صدورهم صورة الصليب بلون احمر وجعلوا هذه الاشارة على الاسلحة والالوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا صليبيين وحروبهم دعيت الحروب الصليبية

قال بعض المورخين اللاتينيين انهُ في اثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهرت عدَّة عجائب في السماء وعلى الارض منها تساقط بعض النجوم من السماء ظهر بانتقالها علامة حمراء دموية في جوانب الافق ومنها ظهور عمود ناري على شكل حربة ذات حدَّين بقرب الشمس . ومنها انهُ شوهد في الجو صور مدن وعساكر وخيول واسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها انهُ كان يرى في مدة ستة ايام متوالية على اثواب المسيحيين صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لايمكن لاحد ان يمحوها بالماء ولا بالنار . فهذه المناظر التي كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لا يتوقفون عن السفر وكانوا يستعدون من يوم الى يوم حتى بلغ عددهم ثلاث مئة الف مقاتل

فعند ذلك ارتحلوا في اثناء سنة ١٠٩٦ للميلاد طالبين القسطنطينية

وكانوا اجناسًا عديدة وفرقًا كثيرة من الايطاليانيين والفرنساويين والنمساويين وغيرهم من سكان اوروبا . وكان بطرس الناسك المقدم ذكرهُ وهو متوشحٌ بثوبهِ الرهباني قائدًا للفرقة الاولى فسار بهم عن طريق المانيا وهونكاريا وبلغاريا . فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الاهالي وقتلوا منهم عددًا كثيرًا وبعد ان قاسوا اهوالاً شديدة انتهوا الى القسطنطينية وكان ملكها يومئذٍ يدعى الكسيوس كومنينوس فاذن لهم ان يقيموا في المدينة الى ان يحضر رفقاؤهم

وقد اصاب الفرقة الثانية ما اصاب الفرقة الاولى في الطريق وقتل منها عددٌ وافرٌ بسبب تعدياتهم ولكنهم وصلوا اخيرًا الى القسطنطينية وانضموا مع البقية فكان عدد من سلم منهم مئة الف مقاتل فنقلهم الملك الكسيوس المذكور في مراكبهِ الى سواحل اسيا ولما انتهوا اليها التقتهم عساكر الاسلام في نواحي نيقية واحاطوا بهم وقاتلوهم قتالاً شديدًا فاستظهروا عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم ولم ينجُ منهم الاَّ القليل فهكذا كانت نهاية الواقعة الاولى

اما بطرس الناسك فكان قد رجع الى القسطنطينية قبل حدوث هذه المعركة متشكيًا من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم الى روسائهم ولكن لما بلغهُ هذه الاخبار المحزنة اقسم بانهُ لا يرجع قط عن عزمهِ حتى يشاهد حربًا صليبية ثانية

فلما بلغ اهالي اوروبا ما حل باصحابهم من النكال حزنوا جدًّا وتحركت عزائمهم على اخذ الثار وازالة الذل والعار والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيشٌ جرار تحت راية غودافروا دوك برابانت وبوليون . ورافقهُ اخواهُ اوستاس وبودوين وغيرهما من القواد المشاهير منهم روبرتس اخو فيلب ملك فرانسا وروبرتس دوك نورمنديا وغيرهما من الدولات . وساروا قاصدين القسطنطينية واستمروا في طريقهم الى ان وصلوا اليها بعد ان فقد

منهم جانب عظيم بسبب الامراض والجوع وفتك اهالي البلاد التي كانوا يمرون فيها . ومن هناك اجتازوا الى شطوط اسيا وعند وصولهم الى نيقية التقتهم جيوش الاسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة انتصرت فيها طوائف الافرنج فاستولوا على المدينة ثم تقدموا بجموعهم الى انطاكية فاخضعوها وتملكوها بعد هجماتٍ هائلة ووقائع متعددة ولما دانت لهم ولاية تلك الاطراف ملأوها بالجنود والفرسان وزحفوا بباقي ابطالهم الى القدس فحاصروها واستفتحوها سنة ١٠٩٩ للميلاد بعد حروبٍ شديدة وصدمات رائعة وجعلوها دار ملكهم

وبعد استيلائهم على اورشليم بثمانية ايام نودي باسم غودافروا ملكًا على فتوحات فلسطين الا انهُ لم يمضِ عليهِ اكثر من خمسة عشر يومًا حتى وافاهُ سلطان مصر بعسكر جرار فالتقاهُ غودافروا عند عسقلان بجيوش الصليبية فكسرهُ وشتت شملهُ . ومن ثم اخذ الصليبيون في توسيع دائرة فتوحاتهم فحاصروا جميع المدن الكائنة على الشطوط البحرية وتغلبوا عليها كمدينة اللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وعسقلان وغيرها فكانت حدود افتتاحاتهم شمالاً الاسكندرونة وجنوبًا ديار مصر ولم يبقَ في يد الاسلام سوى حمص وحماه والشام وحلب مع بعض القرى الحقيرة

وسنة ١١٠٠ توفي غودافروا المذكور وخلفهُ اخوهُ بودوين الاول الذي كان واليًا على أُرفا فحكم ببسالةٍ ونشاط الى ان ادركتهُ الوفاة سنة ١١١٨ فخلفهُ ابن عمهِ بودوين الثاني الذي كان واليًا على ولاية أُرفا في زمن بودوين الاول واستمر حكمهُ الى سنة ١١٢١ ثم أُسر في حربٍ مع الاتراك وبقي اسيرًا عندهم جملة سنين الى ان انقذهُ امير أُرفا . ثم تولى بعدهُ الامير فولك انجو وهو صهرهُ زوج ابنتهِ فحكم ١٢ سنة ومات بعد سقطةٍ عن فرسهِ . ثم خلفهُ ابنهُ بودوين الثالث وامتدت ايام ولايتهِ عشرين سنة وفي مدة احكامهِ ضعفت شوكة الافرنج وقلت سطوتهم واستظهر المسلمون عليهم في حروبهم المتواترة واسترجعوا منهم أُرفا وبعض الاماكن الاخرى . فاستغاث بودوين المذكور باهالي اوروبا وطلب

منهم المساعدة والامداد فامدوهُ بنجدة عظيمة تحت قيادة كونراد الثالث ملك جرمانيا ولويس السابع ملك فرانسا سنة ١١٤٧ للمسيح وهذه هي التجريدة الثانية

وقبل قدوم ملك فرانسا بايام يسيرة وصل ملك جرمانيا الى فلسطين في حالة يرثى لها اذ كان قد تلف اكثر من نصف جيشهِ في الطريق بعضهم بالجوع والمرض وبعضهم بالسيف في المعارك التي اثارها عليهم الاعداء في اثناء الطريق فلما بلغ سواحل سورية وافتهُ مواكب الاسلام وفتكت بعساكرهِ فانسحب مع باقي جيشهِ وبينما كان راجعًا التقى بلويس السابع وجنودهِ الذين وصلوا في حالة احسن من حالتهِ فالتقتهم الاتراك في نواحي انطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال مدة ايام وكانت الدائرة على الملك لويس وجندهِ فانقلب راجعًا ببقية قوادهِ وجيوشهِ ونزلوا في السفن وساروا الى القدس وانضموا الى العساكر اللاتينية مع بقايا العساكر الجرمانية تحت راية ملكها كونراد المذكور ثم زحفوا الى دمشق الشام بقصد الاستيلاء عليها املاً بانهم متى تمكنوا منها يفوزون بالانتصار التام فتنتهي ثورات اعدائهم المتتابعة وتهدم اركان سطوتهم . وكان الوالي عليها يومئذٍ وقائد جيوشها الامير ايوب مقدام الدولة الايوبية وجدُّها فلما وصلوا اليها اقاموا عليها الحصار ونصبوا على ابراجها المجانيق والالات ونازلوها مدة طويلة بدون نتيجة ولا فائدة ولما يئسوا من استخلاصها انكفوا عنها راجعين فهذه كانت اعمال التجريدة الثانية

الباب الثاني

ذكر الحوادث والوقائع التي جرت من بداية التجريدة الثالثة الى نهاية التجريدة التاسعة التي هي ختام الحروب الصليبية

فضعفت شوكة الصليبيين في فلسطين وتزعزعت دعائم ملكتهم بسبب

انكسار العساكر الافرنجية وتشتت شملهم ولكن مع كل ذلك لم يكفوا عن مواظبة الحروب والغارات وحفظ مراكزهم الى سنة ١١٧٤ حين توفي بودوين الرابع وبعد وفاتهِ نهضت امهُ سبيلا وتزوجت برجلٍ ذميم الاخلاق قبيح السيرة الاَّ انهُ كان جميل الصورة وجعلتهُ ملكًا على اورشليم فساء هذا الامر جدًّا في اعين الامراء ووزراء الدولة الصليبية فنفر اكثرهم وخلعوا الطاعة واظهروا الخلاف والعصيان وكان من جملتهم الكونت ريموند الذي لسبب عدم تحويل تاج الملك اليهِ دخلهُ الحسد فخان ابناء وطنهِ وكاتب الاعداء سرًّا منهضًا همتهم على الحروب وافتتاح البلاد على ما قيل

ففي اثناء هذه الحوادث والتقلبات الداخلية ظهر عدو آخر للصليبيين وهو صلاح الدين الايوبي سلطان مصر وكان شابًّا شجاعًا وبطلاً مقدامًا وقد اسس في مصر مملكة جديدة بعد انقراض الدولة الفاطمية فلما كثرت تعديات الافرنج على قوافل المسلمين واهانتهم اياهم وتهددهم بافتتاح مكة والمدينة وتمنعهم عن اعطائهم الترضية اللازمة هاجت حمية الاسلام واشتد حنقهم فنهض صلاح الدين من مصر بثمانين الف مقاتل قاصدًا فلسطين وجعل طريقهُ على مدينة طبرية فلما اشرف عليها احاط بها وحاصرها فوافاهُ ملك القدس بجيوشٍ كثيرة للمدافعة والمحاماة عنها لانها كانت من اهم مراكز البلاد وهناك التقى العسكران والتحم الجيشان فماجت الارض بالعساكر وكانت معركة دموية هائلة استمر القتال فيها بين الفريقين نحو يومين كاملين وكانت الدائرة على الصليبيين فانقلبوا راجعين على الاعقاب طالبين النجاة بعد ان فقد منهم نحو ثلاثين الف مقاتل ووقع الملك اسيرًا مع خواصهِ واكابر روسائهِ في ايدي المسلمين وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين ٢٣٠ رجلاً من اعيان الافرنج المأسورين وهكذا اصبحت البلاد بدون راس ومدبر في قبضة المنتصر

وبعد هذه الحادثة بنحو ثلاثة اشهر زحف صلاح الدين بجيوشهِ على مدينة القدس ونازلها ولم يكن فيها سوى الملكة وقليل من الجنود مع نحو ١٠٠ الف

رجل كانوا قد التجأوا اليها بسبب الثورة المذكورة واذ لم تستطع الملكة الثبات اكثر من اسبوعين ولا سيما ان افكارها كانت مضطربة من جهة اسر زوجها اضطرت اخيرًا الى التسليم تحت شروط معلومة وقع عليها الاتفاق بين الفريقين وهي ان جميع طوائف الافرنج واللاتينيين يخرجون من المدينة ويرحلون بعيالهم واثقالهم وتكون لهم الحماية فيصلون آمنين الى سواحل سورية او مصر وان كلاً من الاهالي يعطي صلاح الدين مبلغًا معلومًا فديةً عن حياته والذي لا يقدر على ذلك يبقى كعبدٍ واسير . ولكن صلاح الدين اظهر من علو الهمة والكرم والشفقة والرحمة ما لا مزيد عليهِ لانهُ كان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عندهم حتى انهُ اطلق سبيل ٢٠٠٠ رجل بدون فدية . وعند مقابلتهِ الملكة اظهر من الرقة واللطف وكرم الاخلاق ما لا يوصف وكان يعزيها بكلامهِ وبدموعهِ معًا ويوزع الاحسان على ارامل وايتام القتلى وسمح للمتوجين على المستشفيات ان يبقوا في المدينة سنة اخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم وكان حدوث ذلك سنة ١١٨٧ للميلاد

فخرج المنفيون من اورشليم وكانوا تائهين في اراضي سورية يلتمسون لانفسهم المعونة والمساعدة وكثيرًا ما كانوا يطردون من نفس اخوتهم المسيحيين بتوبيخات مرّة . وقد توجه اناسٌ من هولاء المنكودي الحظ الى القطر المصري فحرّكت احوالهم التعيسة قلوب المسلمين للشفقة عليهم وآخرون سافروا بحرًا الى اوروبا حاملين اخبار ما اصابهم من الدواهي والنكبات

وسنة ١١٩٠ اقامت النجريدة الثالثة تحت راية فيليب ملك فرانسا والامبراطور فريدريكوس ملك جرمانيا وريكاردوس الاول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وغيرهم من الامراء فنهضوا جميعًا وقصدوا بلاد فلسطين بمئتي سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات وعند وصولهم الى صور وهي المدينة الوحيدة الباقية يومئذٍ في ايدي الصليبيين تقدموا منها الى مدينة عكا الحصينة وحاصروها غير مبالين بالاخطار المحدقة بهم . فاستمر القتال بين الفريقين نحو سنتين وخسر

الجمعان عدداً كثيراً من عساكرها ولكن لما اشتد القتال والحصار على المسلمين وانقطع عنهم الامداد ونفذت ذخائرهم سلموا اخيراً تحت هذه الشروط وهي انهم يعطون الافرنج ٢٠٠ الف ريال من الذهب ويسلمونهم الف وخمس مئة اسير من عامة الصليبيين ومئة اسير من الاشراف كانوا في سجنهم وان يردوا لهم خشبة الصليب التي أُخذت منهم في حرب طبرية . فتسلم الافرنج عكاء في ١٢ تموز سنة ١١٩١ بعد ان كان فقد منهم نحو ٣٠٠ الف رجل بين قتيل وجريح ومريض وغريق وكان عدد المحاصرين نحو ٦٠٠ الف مقاتل

ثم بعد افتتاح عكا عزم ريكاردوس ملك انكلترا على حصار عسقلان التي هي على مسافة مئة ميل من عكا فزحف اليها ولما اشرف عليها وافاهُ الملك صلاح الدين بثلاث مئة الف مقاتل وانتشبت بينهما حروبٌ هائلة لم يسمع بمثلها في الايام السابقة وكانت الدائرة على عساكر المسلمين فانهزم صلاح الدين بعد مقتلة شديدة فقد فيها من جيشهِ نحو اربعين الف نفر من شجعان العسكر وفاز الملك ريكاردوس بالنصر والظفر واستولى على عسقلان وباقي مدن اليهودية. اما صلاح الدين فالتجأ الى مدينة القدس وحصن قلاعها وابراجها وملأها بالعساكر والجنود وكان فصل الشتاء قد دخل وبسبب قساوة البرد توقفت الحروب بين الفريقين . وفي بداية فصل الربيع زحف ريكاردوس بجيشهِ على القدس التي كانت جل قصدهِ وغاية اربهِ فهاج الاهالي واعتراهم الخوف والرعب عند قدوم هذا الجبار فاقام الحصار على المدينة وضيق عليها من كل الجهات ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى انسحب عنها اذ وجد صعوبات كثيرة في افتتاحها وكانت عساكرهُ قد ضجرت من الحروب ومشقات الاسفار

وفي خلال ذلك زحف صلاح الدين في ستين الف مقاتل لاستخلاص مدينة يافا وعند ما اوشك ان يفتحها وافاهُ ريكاردوس فحاربهُ وهزمهُ . ثم ان ريكاردوس وصلاح الدين بعد هذه الحادثة اخذا بالمراسلات والمخابرات في شان الصلح وترك هذه الحروب المهلكة . وكان اول شيء طلبهُ ريكاردوس

تسليم القدس وفلسطين وترجيع خشبة الصليب فرفض صلاح الدين هذا الطلب ولم يسمح بتسليم فلسطين . ثم وقع الاتفاق على توقيف الحرب ثلاث سنين وانهُ في اثناء هذه الهدنة يسمح للمسيحيين ان يزوروا القدس في اي وقت ارادوا بدون دفع جزية وان تُهدم قلعة عسقلان وان يافا وصور والبلاد الواقعة بينهما تبقى بيد الافرنج . فبعد اتمام هذه المعاهدة سافر ريكاردوس الى اوروبا وبعد ذلك بقليل توفي صلاح الدين وقام بالسلطنة مكانهُ اخوهُ سيف الدين . وسنة ١٢٠٢ جهز البابا سلاستينوس الثالث تجريدة رابعة ولكنها انحصرت اعمالها في محاربة ملك الروم في القسطنطينية فتغلب عليهِ اللاتينيون وامتلكوا منهُ المدينة وبقيت تحت تصرف احكامهم مدة ٥٧ سنة

وسنة ١٢١٦ تجند في اوروبا تجريدة خامسة مولفة من مجر وجرمانيين فاجتازوا البحر وجاءوا الى مدينة عكا ونزلوا فيها . وكان حكام سورية يومئذٍ اولاد سيف الدين المذكور فقاوموهم اشد مقاومة ولم يدعوهم يتقدمون ثم وقع بين الافرنج انشقاقات واختلافات فرقتهم وسببت هلاكهم فرجع ملك المجر الى بلادهِ وتوقفت حركة الجنود الصليبية الى ان اتاها نجدة في السنة الثانية نحو ٣٠٠ سفينة مشحونة بالمهمات والرجال فشددت عزائمهم ومكنتهم في الانتصارات ولكن لاسبابٍ غير معلومة تركوا بلاد فلسطين وتوجهوا الى الديار المصرية فاستظهروا على بعض اقاليمها واستولوا على دمياط وحصنوا اسوارها وكانت الاهالي تخافهم وتهابهم حتى انهم طلبوا اليهم ان يعقدوا معهم صلحًا تحت شروط مرضية للصليبيين ولكنهم رفضوها ولم يجيبوا طلبهم . واستمروا منتشرين على شواطي النيل حتى اضعفهم الزمان وقلة الوسائط فاضطروا ان يتنازلوا للمصريين عن تملكاتهم في مصر ليسمحوا لهم بالرجوع الى فلسطين

وسنة ١٢٢٨ تجهزت التجريدة السادسة تحت قيادة فريدريكوس الثاني ملك المانيا الذي كان قد نذر على نفسهِ من مدة طويلة ان ينهض لمساعدة الصليبيين ونجدتهم ولكن بسبب ابطائهِ وتاخرهِ حرمهُ البابا غريغوريوس

التاسع فاغتاظ فريدريكوس من هذه المعاملة واستعد لمقاومة البابا المذكور فذهب اليهِ الى رومية واهانهُ واذلهُ ثم الزمهُ ان يخرج من رومية قهرًا . وكان في اثناء ذلك قد تولد بين المسلمين بلبلة وانقسامات مع امرائهم والمتقدمين فيهم فاضطر الملك الكامل ناصر الدين ابن سيف الدين والي مصر ان يعقد معاهدة مع الملك فريدريكوس المذكور فارسل يستدعيهِ اليهِ واعدًا اياهُ باعطاء اورشليم . فنهض فريدريكوس باربعين الف مقاتل الى عكا ومنها الى القدس بدون ان يعارضهُ معارض ولا ينازعهُ منازع . وبعد ذلك عقد بينهُ وبين المسلمين عهودًا وهي ان القدس ويافا وبيت لحم والناصرة وتوابعها تكون في ايدي المسيحيين وتحت تصرف احكامهم وان كلاًّ من الامتين المتحاربتين يسمح لها ان تمارس فروض مذهبها وسننهُ بكل حرية وبدون معارضة

اما عامة الصليبيين فلم يسرُّوا باعمال فريدريكوس ولم يقبلوا شروطهُ ومعاهداتهِ السلمية لانهم كانوا يعتبرونهُ محرومًا ومرفوضًا من قبل الكرسي الروماني ولذلك رفضوا طاعتهُ . ولما دخل بطريرك اللاتينيين الى القدس لم يرتضِ ان يحضر احتفال تتويجهِ فحينئذٍ مدَّ فريدريكوس يدهُ واخذ التاج عن قبر المسيح ووضعهُ على راسهِ وبعد ذلك بمدة عاد راجعًا الى بلادهِ

ثم في سنة ١٢٢٩ نجد لمساعدة الصليبيين بسبب ثورات ومقاومات اعدائهم تجريدة سابعة مولفة من انكليز وفرنساويين تحت قيادة بعض الاشراف فسبق الفرنساويون الى سورية وحاربوا جملة حروب كان الاستظهار فيها للمسلمين . وفي السنة الثانية حضرت العساكر الانكليزية وكان قائدها الامير كورنوالّ وعند ما وجد هذا الامير ان تملكات الصليبيين وحقوقهم الممنوحة بموجب عهود وشروط من المسلمين عن يد ملك جرمانيا قد نُقضت ورُفضت وان اخصامهم قد سلكوا معهم مسلك الجور والعدوان اسرع في قيام الحرب على المسلمين . واذ كان السلطان يومئذٍ مشتغلاً في محاربة اخيهِ في دمشق عقد صلحًا مع الامير المشار اليهِ وتنازل لهُ عن القدس وبيروت والناصرة وبيت لحم

وجبل تابور وقسم كبير من الاراضي المجاورة

هذا وبينما الصليبيون في ارغد عيش وسرور باسترجاع الاراضي المقدسة دهمتهم مصيبة اخرى لم تخطر قط على بال وهي ظهور جنكيزخان الذي اشتهر بين الاكراد في ذلك الزمان . فانهُ اقام الحرب على ساق وقدم بين طوائف العرب والتتر والعجم فازعج تلك البلاد واقلق بغاراتهِ العباد فتراكضت الشعوب والقبائل مهزومة من امام وجههِ ومن جملتهم شعوب خوارزم الذين احاطوا بسورية وتغلبوا عليها وفتكوا باهاليها ولم يرحموا شيخًا ولا امرأة ونهبوا بيت المقدس وكادت غاراتهم تصل الى الديار المصرية . وبقي الخوارزميون في سورية ولم تقدر عساكر المسلمين والمسيحيين على ردهم الى سنة ١٢٤٧ حين قهرهم وكسرهم الملك المظفر سلطان مصر بقرب الشام وطردهم الى تخومهم ومواطنهم التي على شطوط بحر الخزر

واذ كان الصليبيون لا يزالون في ضنكٍ عظيم تحركت غيرة لويس التاسع ملك فرانسا عليهم فنهض اولاً لنجدتهم بعدة سفن مشحونة بالمهمات والادوات العسكرية الحربية مع خمسين الف مقاتل وقصد اولاً مصر سنة ١٢٤٩ للميلاد وهذه هي النجريدة الثامنة فوصل الى دمياط وامتلكها ومنها تقدم الى جهة القاهرة ولكن قبل بلوغ امالهِ انقرضت عساكرهُ بالمرض والجوع فوقع هو مع من بقي من جيوشهِ اسيرًا في ايدي الاعداء وبقي في اسرهم الى ان فدى نفسهُ وسار بباقي رجالهِ الى فلسطين ومن هناك توجه الى اوروبا . وبعد ذلك بنحو ١٥ سنة زحف الملك الظاهر بيبرس البندقداري احد سلاطين دولة المماليك التركية بمصر بجيشٍ جرار على بلاد فلسطين وكانت الافرنج قد ضعفت قوتها فاخضع مدينتي صفورة وازوث واوقع بالمسيحيين وقتل منهم واسر عددًا كثيرًا ثم قصد مدينة انطاكية فحاصرها وامتلكها وقتل منها نحو اربعين الف رجل واسر مئة الف نسمة وساقهم الى البلاد المصرية في حالة الذل والويل

ولما اتصلت هذه الاخبار المحزنة الى مسامع شعوب اوروبا ساءهم ذلك جدًّا فنهض ثانيةً لويس التاسع ملك فرانسا المقدم ذكرهُ وخرج من بلادهِ بجيشٍ عظيم وقصد اولاً شطوط افريقية لينتقم من التونسيين قبل مسيرهِ الى فلسطين لانهم كانوا قد اقلقوا وازعجوا امنية البحر بتواتر غزوات مراكبهم القرصانية وسلبوا اكثر الذخائر والمهمات التي كانت ترسل من اوروبا اسعافًا الى فلسطين حتى انهم كانوا يمدون المصريين بالخيل والرجال . فحاصر مدينة قرطاجنة وضيق عليها وهزم جيوشها وافتتحها ولكنهُ توفي في اثناء ذلك مع جانب من جيشهِ في وسط تلك الرمال المحرقة من جراء امراض وبائية اصابتهم وكان ذلك سنة ١٢٧٠ وهذه هي التجريدة التاسعة والاخيرة للصليبيين

فانحصرت اخيرًا فتوحات الصليبيين في مدينة عكا حصنهم الوحيد مع بعض المدن المجاورة ولكنهم لم يلبثوا الَّا قليلاً حتى وافاهم الملك الناصر محمد بن قلاوون في جيشٍ من ممالك مصر يبلغ عددهُ نحو مئتي الف مقاتل وضايقهم في مرج ابن عامر ومن بعد عدة معارك اظهر فيها الصليبيون من البسالة والشجاعة ما لا مزيد عليها استظهرت عليهم اخصامهم بكثرة العدد واستولوا على مدينة عكا وقتلوا اكثرهم واسروا منهم جانبًا عظيمًا ثم استولوا على جميع اقطار سورية ومن ذلك الحين انمحت اخبار الصليبيين من بلاد فلسطين لانهم كانوا قد تلاشوا وانقرضوا وكان عدد من مات وقتل منهم في هذه الحروب من باب التقريب نحو ٢٠٠٠٠٠٠ فسبحان المبدي المعيد الدائم والفاعل ما يريد

الفصل الحادي عشر

في اسيا الصُغرى

اسيا الصغرى المعروفة الآن ببر الاناضول موقعها على اطراف بحر الروم الى جهة الشمال الشرقي يحدها شمالاً البحر الاسود وغرباً بوغاز القسطنطينية وبحر مرمرا وشرقاً سورية وما بين النهرين وارمينية . ومعظم طولها من الشرق الى الغرب ستماية ميل وعرضها اربع مئة ميل يخرقها عدة سلاسل جبال منفصلة عن جبل الثور وجبل قوقاس . وهي الآن قسمٌ من المملكة العثمانية واكثر سكانها من المسلمين واشهر مدنها ازمير وهي مولد هوميروس الشاعر اليوناني المشهور وقاعدة تجارة بلاد المشرق

وكانت تنقسم قديماً الى اثنتي عشرة مملكة صغيرة وهي ميسيا وليديا وكاريا وليسيا وبيثينيا وبفلغونيا وبنس وبمفيليا وبيسيديا وكيليكيا وفريجية وكبدوكية ومن اعظم هذه الاقسام مملكة ليديا اشتهرت قبل المسيح بنحو ٨٠٠ سنة واول ملوكها على ما قيل هواردیس قام سنة ٦٩٧ ق م واخر ملوكها كريسوس وكان اغنى ملوك عصرهِ وقد اشتهر في الغنى بهذا المقدار حتى ضُرب بهِ المثل الى الآن اذ يقال فلان غني ككريسوس وكان جلوس هذا الملك على سرير الملك سنة ٥٥٩ ق م وفي ايامهِ ضمَّ الى مملكتهِ جميع البلاد الواقعة غرباً من نهر هاليس الذي يقال لهُ الآن قزل ارمق وكان مجلسهُ مشهداً للفلاسفة واهل العلم . قيل زارهُ مرةً صولون الفيلسوف الشهير فاراهُ كريسوس جميع خزائنهِ

وتحفهِ وقصورهِ من باب الكبرياء ليبهجهُ ويدهشهُ وقال لهُ من تظن اسعد الناس غيري . فاجابهُ صولون لا يُدعَى احدٌ سعيدًا الاَّ من دامت سعادتهُ الى آخر حياتهِ . وقد اصاب ذلك الفيلسوف فيما قالهُ لان كريسوس لم يتمتع بعد ذلك زمانًا طويلاً بغناهُ وسعادتهِ لان كورش ملك الفرس لما زحف لمحاربة الاشوريين اتحد كريسوس معهم على حرب كورش فانكسر وبات محصورًا في مدينة ساردیس قصبة مملكتهِ فاتى كورش وحاصر المدينة وفتحها سنة ٥٤٨ ق م واسر كريسوس ولما مثل بين يديهِ امر بايقاد اتون من نار وان يطرحوا كريسوس فيهِ ولما دنوا بهِ من الاتون تذكر كريسوس ما قالهُ لهُ صولون فصرخ بصوتٍ عالٍ يا صولون يا صولون يا صولون . اما كورش فلما سمع صراخهُ استحضرهُ وسالهُ عن السبب فاخبرهُ بما كان . فاعجبت كورش حكمة صولون فعفا عنهُ وابقاهُ عندهُ معزًا مكرمًا . ومن ذلك الوقت صارت ليديا مع قسمٍ كبير من اسيا الصغرى تابعة لمملكة الفرس حتى اتى اسكندر الكبير فانتصر على ملوك الفرس واستولى على اكثر املاكهم في اسيا

وبعد وفاة اسكندر صار الجزء الاكبر من هذه البلاد تابعًا لمملكة سورية في زمان تملك الدولة السلوقدية وفي اثناء ذلك استقلت بنتس التي كانت من اعمال ليديا واخذت في التقدم والنمو جملة سنين . وفي عصر تملك ميتريدات السابع ملكها اليوناني اكتسبت شهرة عظيمة لانهُ كان على جانب عظيم من الحذق والدراية والباس . وكان من اشد الناس عداوة للرومانيين فحاربهم جملة سنين وانتصر عليهم في جملة وقائع ولكنهُ قُهر اخيرًا من الرومان سنة ٦٤ ق م وانضمت مملكتهُ مع باقي ولايات اسيا الصغرى الى املاك المملكة الرومانية وبقيت تابعة قياصرة رومية والقسطنطينية الى القرن الحادي عشر للميلاد حين استولت الدولة السلجوقية على الاقسام الجنوبية الشرقية من هذه البلاد . وعند انقراض هذه الدولة في اواخر القرن الثالث عشر جاء الاتراك العثمانيون من بلاد التتر الكائنة على نواحي بحر الخزر واستولوا على جانب عظيم منها

تحت راية السلطان عثمان الغازي ومن ابتدا سنة ١٤٨٦ صارت كل هذه البلاد تابعة سلاطين آل عثمان . هذا ومع كل الثورات والحروب التي انتشبت في اسيا الصغرى ازدادت البلاد نموًّا وشعبًا واقيم فيها عدة مدن شهيرة منها افسس في ليديا التي لم تزل اثارها باقية الى الآن تشهد على عظمتها وهي على مسافة بعض ساعات من جنوب مدينة ازمير يقصدها كثير من الناس المشاهدة . وكان في هذه المدينة هيكل عظيم الشان حُسِب من عجائب الدنيا السبع نظرًا لغرابتهِ وعظم بنائهِ وكان مخصصًا لعبادة الآلهة ديانا اي ارطاميس اليونانيين وبقي هذا الهيكل في بهجتهِ ورونقهِ الى سنة ٣٥٦ ق م حين قام رجلٌ من افسس واضرم فيهِ النار فاحترق عن اخرهِ وكان قصدهُ بذلك ان يترك لنفسهِ ذكرًا مؤبدًا وقد ضُرب بهِ المثل حيث يقال ان الرجل الذي لا يقدر على صنع قفص حقير حرق هيكلاً عظيمًا . وكانت هذه الحادثة يوم ولادة اسكندر المكدوني

ومن مدن اسيا الصغرى كولاسايس وطرسوس التي ولد فيها بولس الرسول وكانت في قديم الزمان مساوية في العلوم لمدينة اثينا ومفاخرة لمدينة اسكندرية وليست الآن الاَّ قرية صغيرة . ثم مدينة برغامس وثياتيرا التي يقال لها الآن اق حصار وسرديس قصبة مملكة ليديا . وفيلادلفيا ولاودكية المذكورة في الاسفار المقدسة وتروادة وغيرها . اما برغامس التي يقال لها الان برغاما فكان فيها قديمًا مكتبة معتبرة تحتوي على ٢٠٠ الف مجلد نقلها الملك انطونيوس الروماني والملكة كليوبترا الى مصر . وفيها ايضًا ولد جالينوس الطبيب الشهير

الفصل الثاني عشر

في وصف بلاد الهند وتاريخها

هذه البلاد هي قسمٌ كبير من قارة اسيا وتشتمل على قبائل عديدة منتشرة في كل اقطارها ولكل قبيلةٍ ولاة وحكام مستقلة بذاتها اشبه بدول اوروبا وعدد سكانها ٢٠٠ مليون منهم ١٥٩ مليونًا تحت تسلط الانكليز و٤١ مليونًا في حالة الاستقلال

وقد اختلف المعلمون من جهة تسمية هذه البلاد هندًا فزعم البعض انها تسمت هكذا نسبةً الى نهر الهند والسند وهما كلمتان معناهما باللغة السنسكريتية الازرق نسبةً الى لون مياههِ وقال آخرون ان اسم هند متخذة من كلمة ايندو ومعناها قمر. وذهب بعضهم ان هذه التسمية مقتبسة من كلمة هندو بالفارسية ومعناها الاسود نسبةً الى سواد اهلها ولكن قلما يوثق في صحة هذا الاقتباس لانهُ يصعب التصديق بان امةً من الامم تتخذ لنفسها اسمًا ولقبًا اجنبيًّا والاجدر بها ان تطلق على ذاتها لقبًا ماخوذًا من نفس لغتها . والجغرافيون يقسمون الهند الى قسمين اي هندستان والهند الصينية اما الاول فهو اعظم واشهر وعليهِ يتعلق مدار الكلام واما الثاني فما كان مجاورًا بلاد الصين ويتضمن ثلاث ممالك صغيرة وهي بورما وسيام وكوشين مما لا يسعنا الكلام عنهُ

وفي هندستان انهر عظيمة وجبال مرتفعة ورياض واسعة وهي جيدة التربة كثيرة الحواصل والاشجار واكثر اشجارها نافعة مفيدة واثمارها لذيذة ولاسيما ما

يسمونهُ مانكو وانا ناس فانهُ على ما قيل لا يوجد الذ منها في العالم . ويوجد في هذه البلاد حيوانات كثيرة مختلفة الاجناس ولاسيما الفيل فهو عندهم كالجمل عند العرب . ومن وحوشها الضارية النمر ويكثر هذا الحيوان في نواحي بنكالا على شواطي نهر الكنك وهو من اشرس واجسر الكواسر حتى انهُ يهجم احيانًا على الفارس ويخطفهُ عن ظهر فرسهِ وكثيرًا ما يسطو على الاسد . ثم الكركدن وهو ذو قرن كبير شديد القوة يسطو على الاسد والنمر عند الحاجة

اما مدن هندستان فمن اشهرها مدينة كشمير وهي قصبة بلاد كشمير المشهورة بعمل الشالات . ثم مدينة لاهور قصبة بلاد لاهور الواقعة بين الهند وافغانستان والعجم . ومدينة سورات وهي اقدم مدن الهند . ومدينة احمد اباد ومدينة الله اباد ومدينة كلكته وهي قصبة بلاد الهند وكرسي الحكومة الانكليزية وعدد سكانها نحو ٢٥٠ الف نسمة ومدينة بومبي وهي فرضة حصينة تملكها الانكليز سنة ١٦٣٩ وعدد سكانها ١٧٠ الفًا وغيرها من المدائن

وللهنود اليد الطولى في بعض الصنائع والحسابات الدقيقة واليهم تنسب الارقام الهندية المستعملة في العربية . ولهم عوائد قبيحة وخرافات دينية كثيرة والديانة العامة بينهم هي عبادة الاوثان على المذهب البرهمي نسبة الى برهم الاله العظيم عندهم الذي منهُ جاء ثلاثة آلهة على زعمهم الاول برهما وهو الخالق والثاني فيشنو وهو الحافظ . والثالث سيفا وهو المهلك وتصنع اصنام هذه الآلهة غالبًا على هيئات هذه الصورة ولبرهما اربعة اوجه واربع اذرع باربع ايدٍ ففي يدهِ الاولى جزء من الفيدا وهو كتابهم المقدس وفي اليد الثانية ملعقة وفي الثالثة مسبحة وفي الرابعة اناء فيهِ ماء التطهير . ولفيشنو ايضًا اربع اذرع باربع أيدٍ في يدهِ الاولى بوق صدفي وفي الثانية الحلقة التي عند ادارتها تخرج منها نارٌ اكلة لا يمكن مقاومتها وفي الثالثة هراوة وفي الرابعة غصن حندقوق . ولسيفا ايضًا اربع اذرع باربع ايدٍ في الاولى صولجان وفي الثانية حبل يوثق بهِ المذنبين اما اليدان الاخريان ففارغتان ولهُ عينٌ ثالثة في جبهتهِ ولهُ حياتٌ

برهما
وشنو
سیفا

متعلقة باذنيهِ وقلادة في عنقهِ من رؤوس البشر

واما هندرا ملك الآلهة عندهم فيظنون ان لهُ الف عين وان عيونهُ ليست كلها في راسهِ بل متفرقة في كل جسمهِ وكل عضو من اعضائهِ حتى يرى كل شيء وانهُ يركب فيلاً كبيرًا ماسكًا في اثنتين من ايديهِ الاربع وعلى كتفيهِ

هندرا ملك آلهة الهند

قوسًا وهو متقدم لمقاتلة اعدائهِ . وقد جرت العادة بينهم ان يحرقوا موتاهم بالنار وان مات رجل منهم وكان لهُ زوجة يحرقونها معهُ وهي في قيد الحياة ولكن

قد ابطل الحكم الانكليزي هذه العادة القبيحة ولم تعد تجري الاَّ خفية او في الاماكن التي ليست تحت حكم الانكليز

اما تاريخ الهند فهو من اسقم التواريخ مشحون بالخرافات والاقاويل البعيدة عن التصديق مما لا يهم القاري معرفتهُ . وكان قد غزا هذه البلاد سيزوستريس احد فراعنة مصر وتغلب على بعض اقاليمها واخذ منها غنائم وافرة . ثم غزتها بعدهُ الملكة سميراميس ثم قصدها داريوس هستاسب ملك فارس واستخلص منها جملة ولايات ثم اقتحمها اسكندر المكدوني بمئة وعشرين الف مقاتل واستولى على جانب عظيم منها . وكان قصد هذا الملك الجبار ان يتوغل بجيشهِ في اقطار هذه المملكة ويستخلص جميع ولاياتها وملحقاتها فلم يوافقهُ جندهُ على ذلك فالتزم ان يرتد راجعًا

وقد غزا هذه البلاد ايضًا المسلمون . اولاً سنة ٦٤٤ للميلاد ثم سنة ٧١١ في خلافة الوليد واستولوا على بعض ولايات السند . وكان القائد على جنودهم شاب يقال لهُ محمد قاسم وكان جميل الصورة قوي الجنان ولم يكن معهُ سوى ستة الاف فقط من الرجال المعتادين على خوض المعارك فكان يلتقي بهم صفوف الهنود ويشتت شملهم . وحيثما انتصر اعرض على الاهالي قبول الاسلام فمن اسلم سلم ومن امتنع وكان عمرهُ فوق السبع عشرة قُتل اما النساء والاولاد فكانوا يستعبدون

ومما يستحق الاستغراب انهُ في احدى وقائع محمد التقاهُ مرةً الهنود بالقرب من مدينة حيد اباد في خمسين الف مقاتل تحت قيادة رئيسهم الراجا ظاهر فاشتبك بينهم القتال ومع قلة عدد المسلمين استظهروا على الهنود وقتل الراجا وابنهُ ودخل المنهزمون الى المدينة وحاصروا فيها تحت رياسة ارملة ملكهم وبقوا محاصرين حتى فرغ زادهم وساءت احوالهم من شدة الحصار ولما يئسوا من السلامة اجتمعوا بنسائهم واولادهم فودعوهم ثم احرقوهم بالنار خوفًا من وقوعهم في ايدي الاعداء وبعد ذلك خرجوا من المدينة وهجموا على صفوف المسلمين

فالتقاهم محمد قاسم بابطالهِ وفرسانهِ ولم تكن الاَّ جولة حتى افناهم كلهم وقبض على ابنة ملكهم الراجا ظاهر وكانت من الحسان وارسلها هديةً الى امير المومنين فلما مثلت بين يديهِ اعجبتهُ وطلب ان يتزوج بها فقالت لهُ اعلم ايها الامير اني لا استحق ان اكون لك زوجةً لان قائد جنودك الذي ارسلني اليك قد اساء معي الادب وفعل بي ما لا يليق فغضب الوليد من قبيح فعل محمد واصدر امرًا بان يوتى بهِ اليهِ ملفوفًا بجلد ثور ومخيطًا عليهِ فعند وصول الامر الى المعسكر قُبض على محمد قاسم وأُرسل الى الخليفة على الوجه المذكور وفي اثناء الطريق فارقتهُ الحياة وعند وصول الجثة الى بغداد استدعى الوليد الاميرة الهندية واراها ما حلَّ بمغتصبها ففرحت وابتهجت ثم اخبرت الخليفة بان جميع ما حدثتهُ بهِ في شان محمد قاسم لم يكن لهُ صحة ولكنها فعلت ذلك لتنتقم منهُ وتاخذ بثار ابيها ووطنها فتعجب الخليفة من امرها وازدادت رغبتهُ فيها وبعد موت القائد المذكور تجمعت طوائف الهنود وتعصبوا بعضهم مع البعض وحاربوا المسلمين واستخلصوا منهم جميع املاكهم وطردوهم من بلادهم

وسنة ٩٦٧ للميلاد غزت الاعجام بلاد الهند مرةً اخرى تحت راية سويكتاجي حاكم ولاية كندهار التي هي ولاية فارسية وعاصمتها غزنة فانتصر على ملك لاهور واستولى على جملة مدائن وضمها الى اراضي افغانستان وبعد موتهِ خلفها لابنهِ محمود الغزنوي سنة ٩٩٧ ولما تمكن من الولاية حدثتهُ نفسهُ بالاستقلالية والخروج عن طاعة الاعجام فعصاهم وحاربهم واستقل بولايتهِ وكان ملكًا عالي الهمة شديد الباس غيورًا على دين الاسلام غزا الهند اثنتي عشرة مرة وغنم منها غنائم كثيرة وقتل من اهلها عددًا عظيمًا وحمل ثروتها وسكانها الى غزنة حيث كان يباع الاسير بقيمة ريال . وبعد انتصاراتٍ عديدة توفي محمود المذكور سنة ١٠٣٠ وكانت مدة ملكهِ ٣٥ سنة ونقل خلفاؤهُ كرسي السلطنة من غزنة الى لاهور وجعلوها عاصمة افغانستان . ثم خلف العائلة الغزنوية العائلة الغورية واشهر ملوكها محمود الغوري وفي ايامهِ ايضًا امتدت فتوحات الاسلام في الهند

ثم قصد الهند شعوب المغول واخصهم تيمورلنك وخلفاؤهُ . واشهر ملوكهم محمد بابير زحف على هندستان سنة ١٥٠٥ وبعد ما اخضع كندهار وكابول ودلهي واغرا اسّس سلطنة الهند المغولية وبقيت في ايدي ذريتهِ الى سنة ١٧٦٠ اما مدة ولاية المسلمين في تلك البلاد من زمن محمد الغزني الى انقراض دولة المغول فكانت ٧٥٠ سنة وعدد ولاتهم ٦٥

ومن اشهر ملوك المسلمين من العائلة المغولية الملك اورنزيب كان رجلاً انيسًا شجاعًا ذا دراية وسياسة وكان مع هذه الاوصاف دينًا ورعًا زاهدًا كثير الصلاة والصوم استولى على هذه المملكة من سنة ١٦٦٠ الى ١٧٠٧ وتغلب على كل اقاليمها وجعلها ولاية واحدة وبعد وفاتهِ استولى نسلهُ عليها مدة خمسين سنة وفي ايامهم غزا نادرشاه ملك الفرس تلك البلاد فاضر باهلها ضررًا جسيمًا وسلب اموالهم حتى قيل انهُ خرج منها بنحو عشرة ملايين من الليرات الانكليزية ما عدا الجواهر والامتعة الثمينة التي لم تكن اقل قيمة من المبلغ المذكور . وكان المستولي وقتئذٍ على الهند من ذرية اورنزيب محمد شاه فاستدعاهُ نادر شاه اليهِ بعد ان كان قد استولى على تلك الغنائم واجلسهُ على كرسي المملكة بحضور اشراف الهنود وعظمائهم . ثم التفت بعد ذلك الى الحاضرين وقال لهم اعلموا اني راحل عنكم الى بلادي فيجب عليكم ان تكونوا في طاعة ملككم ولا تخالفوا لهُ امرًا وليكن عندكم معلومًا اني قد صرت لكم من الآن وصاعدًا محبًا وصديقًا فاعتمدوا على كلامي هذا وتحققوهُ وكان في اثناء خطابهِ لهم ابصر على راس محمد شاه جوهرة ثمينة من نفيس الماس (وهي المعروفة بالكوهينور التي هي الآن في قبضة ملكة انكلترا) فاعجبتهُ وطمع في اخذها فجعل يؤكد لهم مزيد صداقتهِ واستعدادهِ لمساعدتهم ولكي يجعلهم واثقين بكلامهِ اراد ان يثبت ذلك العهد بعلامة ظاهرة حسب عوائد الشرق فنزع عمامتهُ عن راسهِ ووضعها على راس محمد شاه بعد ان اخذ عن راس محمد شاه عمامتهُ ووضعها على راسهِ فكان ذلك التبادل نهاية سلبهِ

وكان اول من دخل من الافرنج الى بلاد الهند البورتوغاليين سنة ١٤٩٨ وهم الذين اكتشفوا راس الرجا الصالح ودعوهُ بهذا الاسم وفي اقل من خمسين سنة صار لهم املاك واسعة ومدائن كثيرة في بلاد الهند ثم امتدوا الى اطراف السند وصار لهم عدة مراكز تجارية في بنكال ولكنهم اذ لم يحسنوا السلوك مع الاهالي مقتوهم واشهروا لهم الاذية والضرر. ولما انضمت البورتوغال الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ وكانت يومئذٍ اسبانيا مضطربة الاحوال من جهة املاكها الاميركانية اهملت الالتفات الى حفظ املاكها الهندية فكان ذلك من اقوى الاسباب لخسرانها اياها تدريجًا

ثم بعد البورتوغاليين دخل الفلمنكيون الى الهند في بداية القرن السابع عشر واستولوا على بعض شطوطها واستخلصوا من البورتوغاليين سيلان وكوشين ونيفا باتام وغيرها لكنهم التزموا اخيرًا ان يتنازلوا عن اغلب املاكهم الى الانكليز الذين دخلوا تلك البلاد من بعدهم

اما بداءة دخول الانكليز دخولاً حقيقيًا فكان سنة ١٦٠٠ حين تشكلت شراكة تجارية للمتاجرة في الهند الشرقية وكانت اول اقامتهم في سورات. وفي سنة ١٦٤٠ سمح لهم احد ولاة الهند بقطعة ارض تبلغ مساحتها خمسة اميال مربعة فابتنوا لهم فيها مركزًا ثم اشتروا من والٍ اخر بعض اراضٍ واقاموا فيها عدة مراكز وكانت هذه المراكز اشبه بخانات لوضع بضائعهم ومتاجرهم وذخائرهم الحربية لانهم كانوا دائمًا يتحفظون على انفسهم حذرًا من غزوات الاهالي والافرنج الاجانب. ولامرٍ يريدهُ الله حدث في اواسط القرن السابع عشر ان ابنة الشاه جهان في مدينة دلهي احترقت وهي بالقرب من النار فارسل الشاه يطلب طبيبًا من الانكليز فارسلوا له جراحًا ماهرًا فعالجها حتى شفيت فسالهُ ابوها ان يطلب منهُ ما يريد ليكافئهُ على خدمتهِ فطلب اليهِ امرًا باعطاء الرخصة للشراكة ان توصل تجارتها الى كل اقطار السلطنة بدون ان تدفع عليها رسمًا ثانيًا خلاف المدفوع في سورات وان ياذن لها

ايضًا بانشاء مراكز جديدة . فصادف هذا الطلب مزيد القبول وصدرت الاوامر باجرائهِ من ذلك اليوم . وسنة ١٦٦٢ وهب الشاه جهان المذكور كارلوس الثاني ملك انكلترا جزيرة بومبي فتنازل عنها الى الشراكة تحت مبلغ معلوم فنقلوا اليها من سورات وجعلوها مركزهم الاكبر بعد ما اقاموا فيها حاكمًا انكليزيًّا

ومع ان الفرنساويين لم يدخلوا الهند الا بعد الانكليز بخمسين سنة فانهم في وقتٍ قريب استملكوا فيها املاكًا وكانت قوتهم وسطوتهم تفوقان قوة ونفوذ الانكليز في اول الامر اذ انهم قهروهم اكثر من مرةٍ واخذوا منهم بعض املاكهم وبقيت في ايديهم مدةً حتى استرجعوها فيما بعد . وكان للفرانساويين مزيد الاعتبار ونفوذ الكلمة بين الاهالي اكثر من غيرهم من الافرنج لانهم كانوا يتداخلون في امورهم الداخلية ويتواسطون فض مشاكلهم ويتحزبون في اغراضهم فكانت الاهالي تودهم وترغب في مصاحبتهم ولكن بعد ملاقاة الانكليز للهنود في حرب بلاسي واستظهارهم عليهم بثلاثة الاف مقاتل تحت قيادة الرئيس كلايف بينما كان عدد الهنود خمسين الفًا ارتفع شانهم بين الاهالي ووقعت هيبتهم في قلوب الجميع فكان نجمهم في صعود بينما كان سعد الفرنساويين في هبوط وسقوط ولاسيما بعد انتصارهم عليهم في ١٢ ك٢ سنة ١٧٦١ واسرهم حكمدارهم موسيو لالي واستيلائهم على بونديشيري عاصمة مدنهم التي ارجعوها لهم عقب وقوع الصلح . فمن ذلك الوقت تناقصت السطوة الفرانسلوية في بلاد الهند واخذت شوكة الشراكة الانكليزية تقوى شيئًا فشيئًا حتى استولت على الجانب الاكبر من بلاد الهند وصارت ذات اهمية عظيمة . فما اضاعتهُ انكلترا في القرن الثامن عشر من املاكها الاميركانية استعاضتهُ في الوقت ذاتهِ من بلاد الهند ولكن بعد مشقات كثيرة ونفقات وافية لان الفتن الداخلية كانت بلا انقطاع وعصيان الاهالي كثيرًا ما زعزع اركان الشراكة

واستمرت حكومة الهند في ايدي الشراكة الى سنة ١٨٦٠ حين استلمت

زمامها الحكومة الانكليزية وهي الآن في يدها وتحت تصرف احكامها وايرادها السنوي يعادل ايراد انكلترا الذي يجاوز سبعين مليون ليرة انكليزية

الفصل الثالث عشر

في باقي ممالك اسيا

كان كلامنا في ما سبق على اشهر دول اسيا وممالكها واذ وجد ايضًا عدَّة ممالك في هذه القارة راينا ان نتعرض لذكرها بوجه الاختصار فنقول . من جملة هذه الممالك طوائف السكيثيين اقاموا في الجهة الشمالية من اسيا وكانوا شعوبًا متوحشين اتصفوا بالقوة وشدة الباس ولاسيما رمي النبال وقد توغلت جموعهم في جهة الجنوب وافتتحوا عدة ممالك في تلك الاطراف واستولوا عليها وقد اجتهد كثير من ملوك اوروبا واسيا ان يُدخلوا هولاء القوم تحت الطاعة والانقياد فاقاموا عليهم حروبًا كثيرة ولم ينجحوا . ومن هذه الامة تكونت مملكة الفرثيين التي امتدت سطوتها فيما بعد الى بلاد فارس وغيرها من الممالك واستمر حكمها نحو خمس مئة سنة وذلك من سنة ٢٥٠ ق م الى سنة ٢٥٠ بعد المسيح

وعلى توالي الايام سميت اراضي السكيثيين بلاد التتر وهم شعوب كثيرة متفرقة ولكنهم ليسوا احسن حالة مما كانوا عليه في الايام السابقة وهم ينقسمون الآن الى ثلاثة اقسام . القسم الاكبر منها في الاقسام الشمالية من اسيا وهو تحت تسلط المسكوب وطوائفهُ متعددة يجولون بين تلك البراري الشاسعة وليس

لنا من امرهم تاريخٌ يذكر والقسم الاوسط تحت حكم الصين واما القسم الاصغر فذو حرية واستقلال لا يتسلط عليهِ احد وهو المعروف ببلاد التتر المستقلة واهلهُ من قبائل مختلفة وكل قبيلةٍ منها يتسلط عليها امير جنسها واما ديانتهم فمنهم مسلمون وشيعة يضاهون العجم مذهبًا

وقد اشتهر من رجال هذه البلاد جملة اشخاص يستحقون الذكر منهم ترموجين الذي سمي جنكيزخان من قبيلة المغول كان ابوهُ حاكمًا على بعض قبائل تترية عند شاطي نهر سلنيكا يبلغ عددها ٣٠ او ٤٠ الف عائلة وبعد وفاة ابيهِ سنة ١١٦٤ اظهرت الرعايا العصيان فنهض جنكيز لمحاربتهم وهو يومئذٍ ابن ١٣ سنة واخذ يخضعهم شيئًا فشيئًا حتى تغلب عليهم جميعًا فعظم امرهُ واكتسب شهرة عظيمة ونودي باسمهِ خانًا على المغول والتتر وسمي جنكيز خان الذي تفسيرهُ خان الخانات ومن جملة حروبهِ انهُ غزا بلاد الصين الشمالية وافتتحها ثم زحف بسبع مئة الف مقاتل من المغول والتتر على بلاد الاسلامية فاخضعها وخرب مدنها وامتدت غزواتهُ من ولايات العجم الغربية الى شطوط نهر الفولكا واقصي سواحل بحر الخزر. وكان جنكيزخان المذكور اشد قساوةً ممن سبقهُ وخلفهُ من الملوك الظالمين ومما يحكى عنهُ انهُ امر مرةً بقتل مئة الف رجل من اسراهُ في يوم واحد وينسب اليهِ هلاك ١٤ مليونًا من الجنس البشري الذين قتلوا بحروبهِ وغاراتهِ المتتابعة . وقام بعد جنكيزخان اولادهُ الاربعة فحاربوا ممالك اسيا وافتتحوها تقريبًا ولوصلوا فتوحاتهم الى قسمٍ كبير من اوروبا ولاسيما كولي خان حفيد جنكيزخان فانهُ كان قد اكمل افتتاح الصين وقرض منها فضلات العائلة لملكية الصينية ثم بنى مدينة باكين وجعلها عاصمة المملكة واخضع بنكال وتيبت وضرب على اهاليها الخراج . ومن ذرية جنكيزخان الملك هلاكو الذي قلب سلطة الخلافة الاسلامية وخرب مدينة بغداد ثم غيرهُ من الملوك الذين اخضعوا كثيرًا من البلاد الاوروبية بواسطة قواد جيوشهم ولكن لم يمضِ كثيرٌ حتى ان تلك القواد خلعت طاعة ملوكها واستقلت

في الولايات التي افتتحتها ورفضت العبادة الاصنامية وعوائد المغول والصينيين القبيحة واعتنقت الديانة الاسلامية

ومنهم ايضًا تيمورلنك اي تيمور الاعرج ولد في مدينة القش بالقرب من سمرقند من اعمال بخارا سنة ١٣٣٦ وكان نسبهُ متصلاً بجنكيزخان من النساء ولما اشتهر امرهُ اقام عمهُ والِيًا على احكام القش وسار لافتتاح الممالك واخذ حينئذٍ يتقدم شيئًا فشيئًا حتى ساد واستولى على كثير من الاقطار . وسنة ١٣٧٠ سمّى نفسهُ خانًا واخضع مدينة خوارزم وقشغر وجميع اطراف اسيا شرقي بحر الخزر ثم تغلب على بلاد ايران وما يليها ومنها تحول الى روسيا فنهب مدينة ازوف وهدمها ثم زحف بجيوشهِ الى الهند واجتاز السند وحارب الملك محمد الرابع تحت اسوار مدينة دلهي فهزمهُ وامتلك المدينة مع باقي الولايات التابعة لها ثم قصد بلاد سورية سنة ١٤٠٠ وافتتح حلب والشام وسائر المدن الشامية واستخلصها من يدي سلطان مصر ثم سار الى بغداد سنة ١٤٠١ فحاصرها وهدم ابراجها واوقع باهلها . ولما تمهدت لهُ ولايات تلك البلاد نهض لمحاربة بني عثمان فحاربهم واستولى على امصارهم وقواعدهم واسر السلطان بايزيد في حربٍ دموية جرت بينهما في انقرة سنة ١٤٠٣ وسجنهُ في قفصٍ من حديد ومن هناك حول وجههُ الى الشرق قاصدًا بلاد الصين بمئتي الف مقاتل ولكنهُ مات على الطريق سنة ١٤٠٥ ومن اعمالهِ القبيحة انهُ امر باحراق مدن كثيرة منها الشام وبغداد ودلهي وفي هذه المدينة امر بخنق مئة الف من الاسرى وغير ذلك من الاعمال الفظيعة

ومن ممالك اسيا مملكة يابان على الجهة الشرقية من بلاد الصين هي مجموع جزائر في الاوقيانوس المحيط اعظمها جزيرة نيفون وعدد سكان هذه المملكة نحو ٣٦ مليونًا وهم في الاصل صينيون هاجروا بلادهم في الازمنة السالفة بسبب مغازي التتر وجور المغول واستوطنوا في هذه الجزائر ولذلك يشبهون اهل الصين في الهيئة والعوائد والدين . ومن اعظم مدنهم مدينة يدو وهي قاعدة

السلطنة وليس لبيوتها الا طبقة واحدة او طبقتان فقط بسبب الزلازل وميناؤها غير عميق لا يمكن للسفن ان ترسو الاَّ على بعد خمسة فراسخ ويحيط ببلاط السلطان جدران من الحجر وخنادق وقناطر توضع وترفع عند الحاجة ويحيط ذلك البلاط خمسة فراسخ كل فرسخ مسير ساعة وبها ديوان طوله ست مئة قدم وعرضهُ ثلاث مئة ولها برج مربع سقفهُ من خشب الارز والكافور وهو مزين بشعابين مذهبة وتصاوير مزخرفة وفرشهُ منحصر في حصر بيضاء مزينة بالفرش والمساند المشغولة بالذهب

واهل يابان بوجه الاجمال حسان المنظر وعندهم سهولة في حركاتهم وبنيتهم قوية ليسوا بالطوال ولا بالقصار ولونهم يضرب الى الاصفرار واحيانًا يميل الى السمرة ونساء اكابرهم لا يتعرضنَ للهواء والشمس من غير قناع . واوصاف الاهالي بوجه العموم تمتاز عن غيرها من الناس بعيونها فان شكل عين الواحد منهم يبعد عن الاستدارة فتكون العين مستطيلة صغيرة في الراس واجفان عيونهم مشقوقة شقًّا عميقًا واهدابهم اعلى من مكانها المعتاد عند غيرهم . واغلبهم عريض الراس قصير الرقبة غليظ الانف كانهُ مجدوع وشعورهم سوداء كثيفة برَّاقة وهم يحلقون نصف شعر رؤُوسهم والباقي يرفعونهُ الى وسط رؤُوسهم على شكل العفرية (الشقطية) بخلاف الصينيين ويتَّزرون في اسفارهم بمآزر ضخمة من ورق مدهون بالزيت . وتحيتهم عبارة عن انحنائهم عدة مرات كالركوع . ويحملون في ايديهم المراوح ويفتخرون بشدة تدقيقهم في النظافة . ومن عوائدهم انهم يحرقون اجسام الموتى من اعيانهم ويشهرون عيدًا يسمى عيد المصابيح كما يقع ذلك في بلاد الصين ولكنهم يضيفون اليهِ زيارة القبور في اوقاتٍ معلومة . والامر مجهول هل عرف الاقدمون شيئًا عن احوال هذه المملكة ام لا لان التواريخ لا تفيدنا عنها شيئًا وبقي وجودها مجهولاً للناس الى سنة ١٤٠٠ للمسيح حين اكتشفها الاوروبيون ولكن اذ لم يسمح للاجانب ان يدخلوها الاَّ حديثًا كانت معرفتنا بها قليلة . والظاهر انهُ قد دخل هذه البلاد موخرًا بعض

التنوير لان ملكها شارع الآن في تحسين حالها واصلاحها وملتنت جدًّا الى ترقية اسباب المعارف والصنائع فيها وقد استجلب عدة معلمين ومهندسين من اميركا وفرنسا لفتح المدارس ونظم المعامل على اختلاف صنوفها وغير ذلك من الامور المتعلقة بنجاح البلاد

ومن ممالك اسيا ايضًا ارمينية وكانت في الازمنة القديمة مملكة عظيمة الشان يبتدي تاريخها من بعد الطوفان بزمنٍ يسير مؤسسها يافث بن نوح ومن اشهر ملوكها الملك هايكوس ثم ارمانياك ثم ارمايوس ثم آرام ثم الملك ابكاريوس المعروف بالابجر الذي كان في عصر المسيح واستمرت هذه المملكة في زهوها وعزها نحو الف سنة ثم تغلب عليها الماديون والفرس ثم اسكندر الكبير وبعد وفاته تسلط عليها السريان الى ان تغلب عليها وزيرا انطيوخوس الكبير اللذان قاما على ملكها وخلعا طاعته وعصياه وسنة ٢٢٣ ق م قسما المملكة بينهما الى قسمين فالقسم الواحد كان يدعى ارمينية الكبرى والآخر ارمينية الصغرى. وبعد ذلك بزمان تسلط عليها الرومانيون والعجم سنة ١٥٢٢ مسيحية ثم تسلط عليها آل عثمان ولم تزل خاضعة لهم الى الآن

ومن هذه الممالك تركيا في اسيا وسياتي ذكرها منصلاً ان شاء الله تعالى عند ذكر دولة آل عثمان في اوروبا. وفي قارة اسيا ايضًا عدة ممالك غير هذه لم نتعرض لذكرها لعدم شهرتها كمملكة سيام وكوشن وبرمن وكابول وبلوخستان وغيرها من البلاد التي لا تهم معرفتها. وفي الاقسام الشمالية من اسيا تسكن طوائف من التتر التي بجولانها بين تلك البراري المتسعة في تلك القرون الماضية لم تترك لنا تاريخًا واضحًا واما الآن فهي تحت تسلط دولة المسكوب